الثمن ٥٠ مليم

مع الرئيس في المنفى



في عدن - في سيشل - في جبل طارق

مع مقدمة بقلم رئيس تحرير « المحروسة ».

احمد حافظ عوض

(طبع بالمطبعة التجارية الاهلية شارع عابدين حارة فايد نمرة ٣)

مع الرئيس في المنفى

في عدن - في سيشل - في جبل طارق

وهي مذكرات كتبها تابع سعد باشا وخادمه الخاص

عبد الله محمود

مع مقدمة بقلم رئيس تحرير «المحروسة»

احمد حافظ عوض

(طبع بالمطبعة التجارية الأهلية بشارع عابدين بحارة عايد نمرة ٣)



صاحب المعالى سعد زغلول باشا

ابطال سيشل



حضرة صاحب السعادة فتح الله باشا بركات

ابطال سيشل



حضرة صاحب العزة عاطف بك بركات

ابطال ميشل



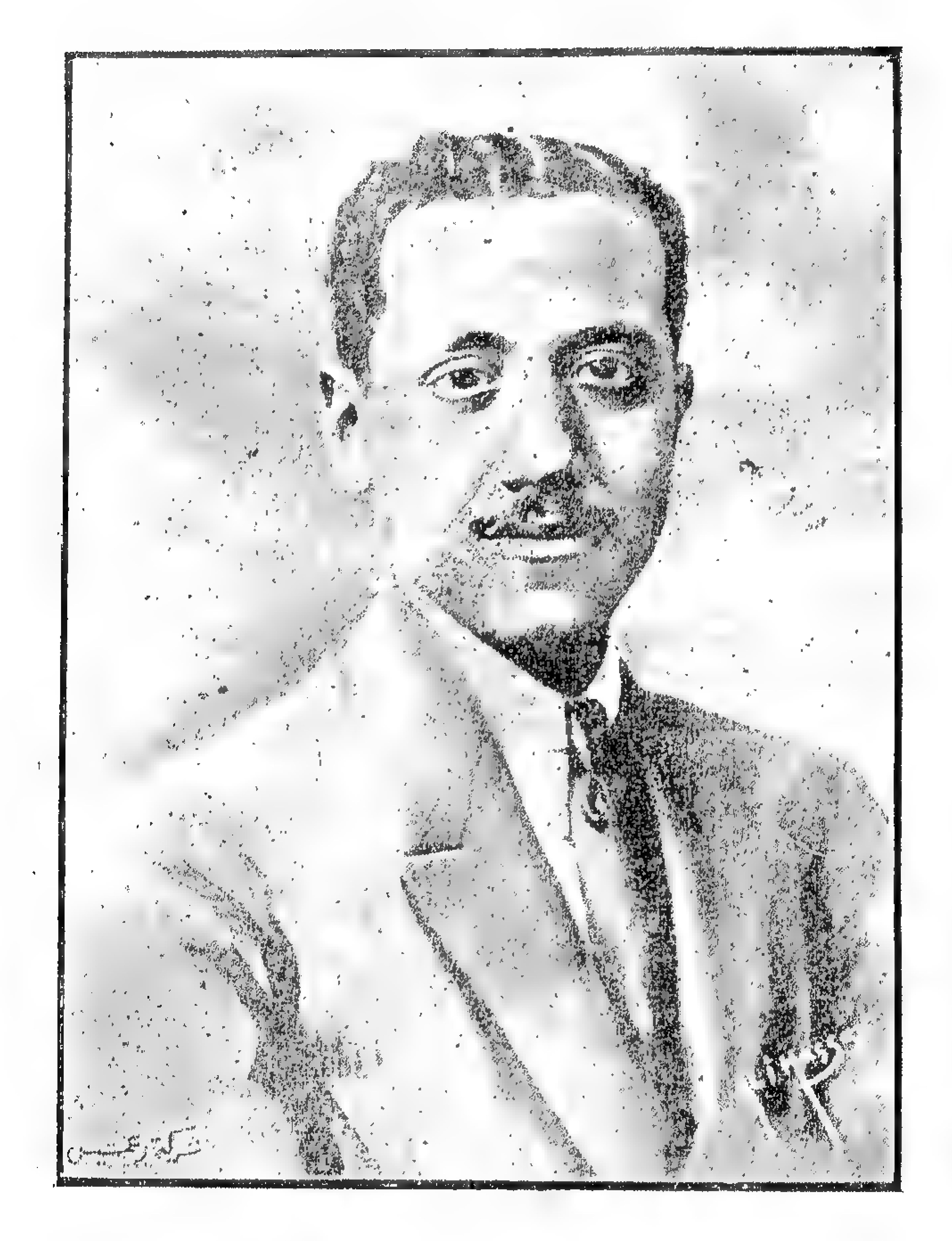
حضرة العضو الجريء سينوت بك حنا

أبطال سيشل



حضرة صاحب العزة مصطفى بك النحاس

ابطال سيشل



حضرة صاحب العزة وليم بك مكرم

كلمة موجزة

لتقديم هذه المذكرات

دخل سعد باشا زغلول في عداد الخالدين من أبطال الوطنية الذين جاهدوا في سبيل رفعة اوطانهم وعظمتها ، والذين لاقوا ، في سبيل هذا الجهاد ، ما لاقوا من صنوف المتاعب والآلام ، والنفي والاعتقال ، على ايدى المستبدين والظالمين ، سواء أكانوا من حكام البلاد الوطنيين ، أم الغائرين المستعمرين الغاصبين !

دخل سعد باشا في صفوف عظماء التاريخ الخالدين ، من أمثال اولئك الرجال الذين اصبحت اسماؤهم : « ابقى على الزمن الباقى من الزمن »

اولئك الرجال الذين شرفوا تاريخ بلادهم ، وشرفوا تاريخ قومهم ، وشرفوا تاريخ البطولة في الانسان ، من أمثال كرشوت ، ومازينى ، ونابوليون ، وهم ليسو كثيرين ...

فكل ما يخص سعد زغلول ، وكل ما له اتصال ، أو شبه اتصال ، بهذا الرجل العظيم ، سيبقى محفوراً على أحجار الابدية ، اذا حرص عليه وساعدت يد الاقدار على تقييد شوارده ، وحفظه من أن تعبث به يد الحدثان .

وأنا ، كواحد من أضعف المشتغلين بفن التاريخ ، وخصوصاً فى فترة منه ، طالما كنت أشعر بلذة عظيمة حينما تقع تحت يدى مذكرات شخصية ، أو معلومات خصوصية ، لمن حضروا حوادث عصر من عصور التاريخ الحديث ، ورأوا حوادثه رأي العين ..

لهذا كان سروري عظيما حين زارني في ادارة (المحروسة) هـذا الشاب الجريء الباسل ، عبد الله افندي محمود ، وقدم لي نفسه بانه كان مع سعد باشا في منفاه ـ في عدن وسيشل وجبل طارق ، فاخذت من باب التشوق لاخبار الرئيس ، ومن كان معه في المنفى ، من الاصدقاء الاجلاء : ـ فتح الله باشا ، وعاطف بك ، وسينوت بك ، ومصطفى النحاس بك ، ومكرم عبيد بك ـ ألقي عليه الأسئلة وهو يجيبني عليها اجابات لطيفة ، راويا أخباراً غريبة ، محزنة ومفرحة ، فخطرت ببالي تلك المذكرات الغريبة ، التي يكتبها عن مثل هذه الفترات التاريخية ، رجال ممن حضروها وشهدوها ، سواء أكانوا من السادة أو من الاتباع ، فاقترحت عليه وضع هذه المذكرات فكتبها نبذة بعد نبذة ، حتى اتمها منذ اسبوعين من الزمان ، فساعدت على طبعها ، دون تعرض مني لغتها أو اسلوبها ، حتى تبرز للناس في ثوبها الطبيعي ، وليكون تأثيرها صادقا ، ووقعها في النفوس صحيحاً ، واني ، وان كنت لا اضمن ، ولا يجوز لي أن أضمن ، صحة كل ما ورد في هـذه المذكرات ، الا أنني لا أجد في نفسي ما يبعث على الشك في صحة رواية هذا الراوي

***

نفى الانجليز منذ ماية عام تقريباً ، نابوليون بونابرت ، الامبراطور القائد العظيم ، منقذ فرنسا من لهيب الثورة الكبرى ، ورافع رايتها على معظم عواصم أوروبا ، ـ الى جزيرة سانت هيلانه ، الصخرة الجرداء ، في الاقيانوس الاطلانطيقي ، على الجانب الغربي من افريقية . . فكان ممن كتبوا المذكرات عن نابوليون في منفاه ، من أتباعه ورجال حاشيته جورجو Gourgoud ، ومونتولون Montholon ، ولاس كاس

وغيرهم كثيرون، من بينهم خادم نابوليون الخاص ، الذى Las Case يغيب عني اسمه الآن ..

وبعد مائة سنة كاملة من وفاة نابوليون فى سنة هيلانه ١٨٢١، نفى الانجليز سعد باشا زغلول المصري ، رافع لواء النهضة المصرية الاخيرة، وزعيم أمته ووكيلها في المطالبــة بحقوقها فى الاســتقلال التام ، الى جزائر سيشل النائية في الاقيانوس المنـدى على الجانب الشرقي من أفريقية ، وها هو اليوم يعود الى بلده ، بعد نفيه وأسره ، ظافراً بثقة أمته وولائها

وقد كتب تابعه ، أو خادمه الضعيف ، عبد الله محمود ، مذكراته عن ذلك المنفى ، وعسى أن يحظى العالم قريباً بمذكرات أصــدقائه وزملائه ، خدمة للتاريخ والاجيال القابلة . وانى لسعيد أن يكون لي شرف الاتصال بهذا الظرف المجيد ، ولو من بعيد ، وذلك بمساعدتي ، على نشر هذه الـكلمة فى مقدمة هذه المذكرات .

أدام الله لنا سعداً وأيده في جهاده ، وأعز به الوطن ، وساعده على الصعود به الى ذروة الحرية والاستقلال التام

القاهرة فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٢٣ « رئيس تحرير المحروسة »

احمد حافظ عوض



حضرة صاحب العزة حافظ بك عوض
رئيس تحرير جريدة المحروسة الغراء



حضرة عبدالله افندى محمود

في مصر

فى اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر سـنة ١٩٢١ . أصبح الناس، والسماء ملبدة بالغيوم السوداء، والسحب القاتمة ، والجو مكفهر أغبر والرياح تعصف بشدة ، وكأنما كان ذلك اليوم العبوس القمطرير ينذر بمصائب وارزاء . ولم تكذب نبوءة السحب ولا تكهن الرياح . أذ لم تكد تخطو الشمس خطوة واحدة فى الافق حتي ولد ذلك اليوم المشئوم ما خبأه الدهر لمصر فى بطون الحادثات، فأصيبت الأمة المصرية بطعنة نجلاء فى كرامتها ، نفذت الى أحشائها ، وأدمت قلوب أبنائها ، فثار ثائرهم، وتناولت النفوس عوامل الدهشة والألم والاشمئزاز وقرعت أجراس التليفونات ، واهتزت أسلاك التلغراف ، فى جميع أنحاء العالم المتمدين ، وقامت قيامة المصريين وقعدت ، وأذهلت كل مرضعة عما ارضعت . فتري الناس سكارى. وما هم بسكارى ، ولكن وقع ذلك النبأ المزعج ـ نبأ اعتقال صاحب المعالى سعد زغلول باشا ، زعيم الوفد المصرى ـ كان على الناس كوقع الصاعقة .

وكلنا يعرف ما انتحل من الاسباب لتبرير ذلك الاعتقال. كما نعرف جيدا ذلك الرد التاريخي الخالد الذى أجاب به زعيم الوفد المصرى ، لحفظ لمصر كرامة كانت تداس بالاقدام ، لو أنه أجاب بعكس ذلك .

ولا ضرورة لشرح حالة القطر بعدئذ أو محاولة وصف شعور القوم فى مصر ، ولا ما اختلف من الاشاعات عن مكان وجوده فذلك غير خاف على احد . كما هو معلوم أيضاً كيف اعتقل في اليوم نفسه حضرات

اصحاب السعادة والعزة ، فتح الله بركات باشا ، ومصطفى النحاس بك ، وعاطف بركات بك ، وسينوت حنا بك ، والاستاذ وليم مكرم عبيد ، فى بيت الاول بشارع ناظر الجيش :

حضر مساء ذلك اليوم (الجمعه ٢٣ ديسمبر) ضابطان من الانجليز في سيارة صغيرة ، تصحبهما سيارة نقل كبيرة غاصة بالجنود الانجليزية المدججين بالسلاح الى بيت الأمـة ، وطلبا بعض الملابس والأمتعة للرئيس مع تابع له أيضاً ، ولم يصرحا لأحد عن مكان وجوده .

كنت في تلك الساعة موجوداً ببيت الأمة . فتوليت أمر احضار تابع الرئيس الذي سافر معه فى اعتقاله الاول لمدة شهرين في مالطه ، ثم الى فرنسا ، واسمه محمد احمد . وهو الذى كان فيما سبق خادماً للمرحوم مصطفى فهمي باشا ، والد صاحبة العصمة حرم سـعد باشا . ووافقنى لاحضاره تابع آخر للرئيس يدعى الحاج احمد عثمان وهو مخلص له ، قضي فى خدمته ما يزيد على العشرين سنة ، وكان ذلك بناء على اشارة من صاحبة العصمة حرمه ، بينما كانت عصمتها مهتمة بتحضير الملابس وبعض الأمتعة الضرورية بمساعدة الخدم .

قابلنا ذلك التابع الذى رغب فى الذهاب على شرط أن يصحب معه زوجه وابنه الصغير ، ولما لم يك ذلك بالأمر الممكن ، تركناه وعرضنا الأمر على حاجبه الخاص المعين من قبل الجمعية التشريعية ، واسمه محمد افندى راغب . وقد قبل الذهاب على أمل ألا تزيد مدة تغيبه عن مصر على شهرين أو ثلاثة ، لأن فى كنفه ، وتحت رعايته ، أطفالا قصر هو الوصي عليهم ، ثم اصطحبنا بحقيبة صغيرة الى بيت الامة .

نال من نفسي ما نال من نفس كل مصري يجري فى عروقه دم الشباب وقتئذ . وعز علي ألا أرى الناس تتهافت على خدمة من فقد حريته

من أجلهم . فأخبرت الحاج احمد انني على استعداد لاصطحاب الرئيس الرئيس اينما وحيثما ذهب، ولأى مدة كانت هذا اذا لم يتيسر الحصول على تابع يرافق معاليه . وكفانى بذلك شرفا وراحة ضمير اذ انى أؤدي به قليلا مما يجب علي نحو بلادى .

فقد طالما تمنيت أن يساعدنى الله في تأدية شيء من هـذا الواجب

وصلنا الي بيت الأمة ودخل الحاج احمد يصحب الحاجب الى حيث كانت صاحبة العصمة حرم الرئيس ، ولم يمض دقيقتان حتي استدعيت لدى عصمتها . فلما رأتنى نادت قائلة هل تذهب يا بنى ؟ وقبل أن أجيبها ارتفع صوت قائلا : ــ هذا حسن، وعبد الله يعرف الانجليزية . أليس كذلك يا عبد الله ؟ . فالتفت فاذا بالمرحوم سعيد زغلول بك واقفاً قرب عصمتها. ولم أكد رأيته عند دخولى لما كان مستولياً علي من شعور ملك علي حواسي تقريباً فأجبتهما بنعم . وانى أعد نفسي سعيد الطالع لحصولى على ذلك الشرف العظيم ..

هرعت بعـد ذلك الى بيتى لاحضار حوائجي والتزود من عائلتى بنظرة ربما كانت الأخيرة . وقد كان مما يشق على النفس كثيراً فراق الأهل، ولكن هناك وعد قطعته على نفسي أمام عزيمتى، وبجد ينادينى الى خدمة الرئيس فرجعت الى بيت الأمة حيث القوم في انتظارى .. وبينهم الضابطان الانجليزيان والجنود .

جاءت الي صاحبة العصمة حرم الرئيس لتزودنى بكلمات أحملها الى معاليه فقالت ، وهي تغالب بحماستها العبرات : ــ " أخبره انني شجاعة كما عهدنى وسأقوم بآخر جهدى بما كان يقوم به في مصر. ثم أخبره وانه ان يك قد ذهب فانى باقية ببيت الأمة، أعمل ما كان يعمله . عرفه بأني سأكون مقدامة جسورة ، فليهدأ بالا من جهتى وسأصبر واصابر

وابذل كل ما وهبني الله من جلد وقوة في سبيل القيام بالواجب ،،

لم تستطع مغالبة البكاء أكثر من ذلك . فخنقتها العبرات فبكى الحاضرون الذين كانوا وقوفا كأن على رؤوسهم الطير .

خرجت من حضرتهـا الى حيث كانت السيارتان بالانتظار ، أمام الباب الخارجي ، فتبعني من كان هناك من أنسباء وأقرباء وأصحاب الرئيس ، اذكر من بينهم صاحب العزة نجيب بك حتاته . وطاهر اللوزى بك . والمرحوم سعيد زغلول بك . وطلبوا مني جميعاً تقديم تحياتهم واحتراماتهم والتعبير عن آلامهم وشعورهم للرئيس . ثم حاول بعضهم تشجيعي ببعض الكلمات . ولكنهم وجدوا ألا حاجة لذلك لما كان يبدو على من الاقدام والثبات . والى هنا تم وضع الحقائب في السيارة الكبيرة ، فودعتهم واعداً ببذل آخر جهدى في سبيل راحة الرئيس وارضائه . وأخذت مجلسي في السيارة الكبيرة على يسار السائق . وبجانبي ضابط مصري برتبة ملازم أول ، لزم الصمت تقريباً طول مدة وجودى بالسيارة ، فلم أستطع معرفة مكان الرئيس منه .

وهكذا سارت السيارتان الصغيرة بالضابطين في المقدمة ، وتتبعها الكبيرة بالجنود والحقائب ، في ظلام دامس وظلمة حالكة ، والسكون يخيم على ما حولنا ، وقد زادت حوادث ذلك اليوم تلك الليلة رهبة وروعة : وقفت السيارتان أخيراً أمام دار المندوب السامى اللورد اللنبي في قصر الدوبارة . ونزل من الاولى الضابطان مع الجنود والضابط المصرى زهاء ربع ساعه . حتى عادا . وأمر أحدهما سائق سيارتنا باتباعهما بالسيارة ، واستئنفنا السير ثانيـة . الى أن وقفنا أخيراً أمام عمارة في آخر شارع الحوياتي . فدخل الضابطان الى هناك وبقيت في الخارج قليلا من الزمن ، حتى استدعيت الى الداخل ، فدخلت إلى ذلك المكان

وهو فى الطبقة الاولى علي اليسار . ومررت في طرقة طويلة كان بهاعلى يسارى حجرتان جلس فى احداهما بعض كبار الضباط من الانجليز حول خوان يتنادمون ، ويشربون ويطربون على صوت كمنجة كان يعزف عليها أحدهم!!!

تقدم الي رجل طويل القامة ، يرتدى ثياباً سوداء ، وسألني عن اسمي وطلب منى أن أتبعه . فسرت وراءه الى حجرة . وضع في وسطها خوان فجلس وراءه وقدم لى كرسيا طالباً منى الجلوس بأزائه ففعلت ثم بدأ حديثه قائلا :ـ ستذهب الى زغلول باشا . وربما أنك لا تدرى أنك ستعامل نفس المعاملة التي يلقاها معاليه : فقلت اني على استعداد تام وكفانى سروراً وفخراً أن أعامل كما تقول . فابتسم ثم قال : انني اعنى بخصوص الاعتقال والانتقال، فكررت له جوابى الأول . وعاد فاستتبع حديثه متسائلا عما يكون في تلك الحقائب فأجبته لا شيء غير الملابس وبعض الحاجيات الضرورية . فقال هلا يوجد جرائد أو أوراق سياسية ؟؟ فقلت لا ، غير بعض الكتب الأدبية ، وخطاب مكتوب بالفرنسية من صاحبة العصمة حرم الرئيس لمعاليه . فقال لا بأس بهذا انما كن شديد الحذر من حمل جرائد أو أوراق . فسألته عما اذا كان من الممكن حمل نقود معى . فقال أليست نقودك ؟ لا بأس . عندذلك اخبرنى بعد ذلك أن الرئيس موجود بالسويس وان أمتعته سترسل اليه الليلة بطيارة . وانه يجب علي التوجه صباح الغد ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٢١ الى ادن بلاس (قصر عدن) بميدان الخازندار بمصر . بالخطاب الذى يسلمه الي . وأعطانى خطاباً وبطاقة باسمه وجدت مكتوباً عليه بالانجليزية ميجر تويدي . وقال أنهم سيتولون هناك شأن ارسالى الى زغلول باشا فحييت وانصرفت .

خرجت من عنده والساعة بلغت العاشرة تقريباً . ثم اخترقت شارع الحوياتي فشارع الفلكي الى بيت الأمة . ولم يمكني قطع هذه المسافة في أقل من ساعة . مع أن الوقت المعتاد لقطعها لا يزيد عن العشر دقائق . وذلك لأن المصابيح كانت محطمة والظلام دامس ، والطريق مملوء بقطع الحجارة ، وغصون الأشجار ، وشظايا الزجاج ، وركام المتاريس وغير ذلك من آثار الانفعال والاضطراب . مما يعطل السير ويجعله خطر في الظلام . . .

وكانت طلقات الرصاص تسمع من حين لآخر فتزيد الليل رهبة والطريق روعة .

لما وصلت الى بيت الامة ، عرفتهم بما تم معرفتي به عن مكان وجود الرئيس ، وبت تلك الليلة بمصر الى ان كان صباح اليوم التالي ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٢١ . فتوجهت الى ادن بلاس وسلمت الخطاب الذى معي من الميجر تويدي الى رجل هناك حمله الى الشخص المعنون باسمه الذى مالبث ان حضر . وبعد أن القى علي عدة أسئلة طلب مني فتح حقيبتي لتفتيشها ولما تم له ذلك حتم علي بضرورة الاسراع الى المحطة لاخذ قطار الساعة العاشرة الى السويس . وحذرني من فوات ذلك القطار . وعرفني أن هناك من ينتظرني بالسويس لتوصيلي الى معالى الرئيس . في طريقي الى المحطة قابلت كثيرين ممن عرفتهم يترددون على بيت الامة فسألوني عن مكان الرئيس فأجبتهم بما اعلم واني ذاهب اليه . فاصطحبوني الى المحطة . وأبوا أن يتركوني حتي قيام القطار . وفي اثناء ذلك أخذوا يتلون علىّ كثيراً من آيات الاخلاص والولاء والوطنية ، آملين مني ترديدها على مسامع الرئيس ، والتعبير عن شعورهم وآلامهم .

في اثناء قطع المسافة بين مصر والسويس ، سألت من التف حولي

من موظفي السكةالحديد عما اذا كانوا يعرفون شيئاً عن انتقال الرئيس الى السويس فأجابني بعضهم بأنهم يرتابون في قطار قام أمس من مصر ليلا من قصر النيل قاصداً السويس. ولكن ظهر لى بطلان ذلك عندمقابلتي معالى الرئيس وقصه علي كيفية انتقاله الي السويس التي سأذكرها في حينها .

فى السويس

وصلت اخيراً الى السويس ومعي حقائب الرئيس التى كنت اخبرت مساء ٢٣ بواسطة الميجر تويدى بأنها سترسل الى معاليه بالطيارة . ولكن لما ذهبت الى المحطة وجدتها لا تزال بمصر فأخذتها معي . . .
وجدت على محطة السويس جمهورا خفيرا من مختلف طبقات الناس . ولاحظت بينهم عدداً غير قليل من الجنود الانجليزية والهندية وبعض الضباط من الانجليز ايضاً .

ورأيت كذلك رجلا تبدو انجليزيته على ملامحه رغم وضعه الطربوش وقد ارتدى بلباس ضابط مصري ويجانبه محافظ السويس . وهما ينظران الى عربات القطار كمن يبحث عن شيء . فقصدتهما مباشرة وعرفتهما بنفسى وعلمت انهما بانتظاري . وسرعان ما وصل الى مسمع الجمهور الملتئم ذلك حتى علا الهتاف لسعدباشا وصحبه ومصر والمخلصين لها . وتكاثف حولى راجياً مني تبليغ تحياته وتمنياته الطيبة والتعبير عن اخلاصه وشعوره وآلامه . واستعداده للتضحية في سبيل خلاص معاليه وغسل تلك الاهانة التي اصابت الامة في سويدائها .

انتهى الجنود من نقل الامتعة الى سيارة كبيرة بناء علي اشارة من أحد الضباط الذى دعانى بعد ذلك الى ركوب السيارة . وركب معي هو ونحو العشرة من الجنود الهندية واستقل الباقون سيارتين أخريين وابتدأنا فى السير بينما يدوى الفضاء بعبارات الهتاف لسعد باشا

ومصر والعاملين .

استمر السير بنا نحو نصف ساعة تقريباً في ارض رملية بين معسكرات انجليزية، انتشرت ذات اليمين وذات اليسار، حتى وصلنا الى مقصدنا فاذا به معسكر كباقي المعسكرات محاط بالاسلاك الشائكة وقد انتشرت « الديدبانات » خارج تلك الاسلاك باسلحتها رائحة غادية ، واصطفت خيام عدة داخل الاسلاك ، فقلت في نفسي هنا مربض الاسد . ودعاني كبير الضباط الى اتباعه فتبعته الى خيمة كبيرة ، وقف في وسطها اربعة من الضباط الانجليز حول منضدة وكان الجنود مهتمين بنقل الحقائب من السيارة الى تلك الخيمة فأمرت بفتحها وأخذ الضباط يفتشونها تفتيشاً دقيقاً . ووجدوا بينها حقيبة بها بعض كتب الادب العربية . لحجزوها فعرفتهم انها ليست الا كتب أدب وليس بها ما يتخوف منه . فلم يجد ذلك نفعاً ، ولم يسلموها الي وأبوا الا حفظها ، وما ان انتهوا من تفتيش الحقائب بدقة حتى بدأوا فى تفتيشي شخصياً فلم يعثروا على شيء . جاء الجنود ثانية وأخذوا ينقلون الامتعة الى مكان آخر . فأمرني كبير الضباط أن اتبعهم الى حيث أجد الرئيس .

سرت وراءهم وقد تنازعتني عوامل متضاربة من حزن وفرح وأسف واغتباط . الي ان انتهيت الى خيمة كبيرة تمتاز عن بقية خيام المعسكر بنظافتها ووقف امامها جندي من الجنود شاكي السلاح . فخطوت خطوتين منكس الرأس لانخفاض بابها .

وما أن رفعت بصري ، حتى وجدت امامي معبود المصريين وهيكلهم المقدس ، وقد انتصب فى وسط الخيمة مرتفع القامة ، عالي الرأس مشيراً بأصبعه الى مكان فى جانب الخيمة حيث يجب أن يضع الجنود الحقائب . وكم أود الآن لو ان يهبني الله قدرة وبلاغة فأرسم

القاريء ولو صورة مصغرة من ذلك المنظر المهيب الذى استفزنى من أجله عوامل جمة في تلك الساعة . فلم أدر أأبك الما . أم امر اعجاباً . ولم أشعر الا وأنا قابض بيدى اليمنى على يدالرئيس وبشفتاي وقدرسمتنا عليها قبلة اودعتها كل ما تضمره نفسي وينطوى عليه قلبى من فرح وألم واخلاص وتقديس . رمي بنظرة الي . ووصلت الى سمعى كلمات خلتها وحياً يوحى .

« اهذا أنت يا عبدالله الذي حضر؟ شكراً لك . »فأجبته بصوت حشرجة التألم والسرور. « لست اطمع بالشكر من معاليكم ، وانما أؤمل ارضاءكم وعسي أن يوفقنى الله الى ذلك » ثم بدأ معاليه بالسؤال عن اخوانه اعضاء الوفـد المصرى . فعرفته بنبأ اعتقال صاحب السعادة فتح الله بركات باشا واصحاب العزة محمـد عاطف بركات بك ومصطفى النحاس بك وسينوت حنا بك والاستاذ وليم مكرم عبيد ، حوالى الساعة الواحدة بعدظهر يوم الجمعة في بيت الاول وان الآراء تتضارب بخصوص مكان وجودهم كما تضاربت بخصوص مكان وجود معاليـه . فسألني وهل يعرف الناس مكان وجودي الآن . فقلت لقد اشيعت الخبر عن مكان وجودك عند ماعلمت به مساء اليوم الماضى . وهكذا استمر معاليه في القاء الاسئلة مستفسراً عما اعلمه بخصوص هـذا أو ذاك . وأخذت اجيبه بما وصل الى علمي منها وما وقعت عليه عيناي . وقد اظهر الكدر والاستياء لما علم به منى بحجز السلطة العسكرية لأمواله وأموال زملائه والوفد فى البنوك. ومما اذكره من اسئلة معاليه وقتئذ ان سألني عن حال القطر بمداعتقاله باهتمام . فأجبته بأنى تركته كأتون مضطرم تزداد ناره اشتعالا ولا يبعد اننا علي ابواب ثورة هائلة .

ثم انقضى جزء من الليل الى أن قربنا من منتصفه فآوى معاليه الى

مضجعه وقمت أنا الى خيمة صغيرة اعدوها لى بالقرب من خيمة الرئيس بعد أن احكمت غلق باب هذه بالحبال .

ولم استطع أن استسلم لرقاد عميق هادىء، نظراً لما تمثل امامى من عظيم الواجب الذي أخذت على عاتقي اداءه . ولم يك أمر الحاضر المرتبك، أو المستقبل المجهول الغامض، ليقف من مضجعي ويسلبني رقادي، ولكن مجرد التفكر فى سبب وجودى بالمسكر وفيمن هو على مقربة منى محاط بالجنود والحراس، ترفرف حول مضجعه قلوب أمة بأسرها ... اطار النوم عنى ومنع القرار .

قص علي معاليه في تلك الليلة ، كيفية انتقاله من مصر ووصوله الى السويس قال : — لما اخذنى الضباط والجنود من منزلى الى السيارة صباح الجمعة ٢٣ ، وكانت من سيارات الصليب الاحمر المعـدة لنقل الجرحى وسارت بنا تخترق شوارع العاصمة وطرقاتها بسرعة عظيمة . ولاحظت أثناء الطريق انه كان على كل تقاطع شارع من الشوارع التي مررنا عليها جنود مدججين بالسلاح ميممة نحو العباسية . ظننت أن وجهتنا معسكر من معسكراتها ولـكن لما اجـتزناها قلت ربما كانت وجهتنا معسكر في هليوبوليس أو خارجها . ولمـا توغلنا فى الصحراء وتغلغلنا فى السير ولم تزل السيارات تطوى الاميال بسرعة عظيمة رجحت أن وجهتنا السويس التى وصلنا اليها بعد رحلة طويلة شاقة . تحت حرارة الشمس المحرقة . وفى أثناء الطريق نفد ماكان معنا فى السيارة من البنزين . فتوقفنا عن السير ريثما نقلوا اليها بعض ماكان بالسيارات الاخرى من البنزين واستأنفنا السير بدونها . وقد قدم الي أحد الضباط اثناء ذلك شيئاً من الجبن والخبز ، معتذراً عن عدم وجود خلافهما نظراً لان الظروف لم تمكنهم من احضار شيء . وقدقضيت الوقت

حتى حضورك وأنا متضايق من سوء الخدمة بالمعسكر لعدم فهمهم العربية أو الفرنسية . كما انى لم استطع التفاهم معهم بالانجليزية التي أجهلها فعانيت كثيراً رغم ما بذلوه من العناية والاهتمام

استيقظت من النوم مبكراً صباح يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢١ وارتديت ثيابي على عجل خوفا من ان يكون الرئيس قد استيقظ واحتاج لبعض الاشياء وذهبت تواً الى خيمته فوجدت أحد الحراس على بابها يروح ويغدو . رافعاً بندقيته على كتفه . حللت باب الخيمة ودخلت فوجدت الرئيس لايزال بفراشه ولكنه متيقظا فحييته باحترام تحية الصباح . وعبرت عن أملى فى أن يكون نام نوما حسناً في تلك الليلة فاخبرنى بأنه لم يستطع النوم في اول الليل . ولكنه تغلب على السهاد أخيراً واستغرق في النوم حوالى الساعة الثانية من الصباح . ثم اخبرنى انه يخيل اليه كأن سمع صوتاً حوالى الساعة ١٢ يتكلم قرب خيمته : وكان ذلك الصوت يشبه صوت عاطف بركات بك ينادى بياسينوت . وسألني عما اذا كنت سمعت شيئا من هذا القبيل فاجبته بالسلب. فقال ربما كانت اضغاث احلام أو تأثير فكر . ولكني عدت فذكرت بعد برهة ماحدث أمامي الليلة الماضية وهو أن قومندان المعسكر حضر أثناء تناولى طعام العشاء وأمر الطباخ بتحضير عشاء بسيط لعدة أشخاص يحضرون عند منتصف الليل . ولم اعر ذلك اهتماما وقتئذ. ولكن لما ذكر الرئيس ما خيل اليه أنه سمعه الليلة الماضية . ومض أمامي بريق من نور الامل ، وأخبرت الرئيس بذلك . فقال اذن يحسن أن تذهب مستطلعاً عسي أن يكونوا هم الذين عناهم القومندان. وقبل أن يتم جملته انطلقت خارج الخيمة بسرعة . فارسلت نظري هنا وهناك فلم أر شيئاً سوى الخيام والجنود . فدرت خلف خيمة الرئيس حيث اصطف خلفها صف

من الخيام الكبيرة فاذا أنا بشيخ مقوس الظهر قليلا يرتدي «روب دى شامبر». وقف قرب باب احدى الخيام وما تحققته حتى صحت قائلا فتح الله باشا !!. وكان هو صاحب السعادة فتح الله بركات باشا . فالتفت الي وعرفني فاخبرته أن الرئيس موجود بالخيمة التي امامه . وسمع حديثنا اذ ذاك سائر صحبه الذين كانوا بخيامهم على مقربة منا . فخرجوا وذهبوا مسرعين الى خيمة الرئيس حيث ارتفعت صيحات الفرح والسرور ، وعلت عبارات الشكر والاغتباط

مكثوا مع الرئيس قليلا ثم ذهب كل ليرتدي ثيابه وقام الرئيس فارتدي ثيابه أيضاً وسبقهم الى غرفة المائدة وعلى وجهه علائم السرور والانشراح . وبعد قليل حضروا فتقدمهم اليه . ولما انتهى طعام الافطار الذي كان مكونا من البيض والسمك والشاي واللبن والجبن والزبدة ، رجعوا جميعاً الى خيمة الرئيس وجلسوا بأزائه حول منضدة في وسط الخيمة ، يتجاذبون اطراف الحديث. قال سعد باشا. «ان الورد النبي لم يقدم على اعتقاله وزملائه ، الا بعد الايعاز من ثروت والاستئذان من انجلترا» ووافقه الجميع على ذلك الرأى . وحكى اصحابه أن رجال السلطة حاولوا أن يأخذوا منهم تعهداً بعدم الاشتغال بالسياسة فأبوا . وقد حبذ الرئيس ذلك الاباء فقال : — « ان المنع من الاشتغال بالسياسة معناه أن يتجرد الانسان من قوميته ومن شعوره الوطنى ولا يقبل ذلك الا من لا حيثية له ولا وطنية عنده » وأضاف الى ذلك « ان الاشتغال بالسياسة ان كان مباحا ، فلا يحرمه التعهد . ولا يصح في القانون أن تكون العقوبة نتيجة اتفاق ، لان المتعهد به اما أن يكون نفسه مباحا أو ممنوعا . فان كان مباحا فلا يمنعه التعهد منعاً تترتب عليه عقوبة ، وان كان ممنوعا منعاً يعاقب القانون على فعله فلا معنى

لتعهد به » ثم قال « هذا الذى اعرفه من المبادىء القانونية . ولكن لعل للانجليز وعلى الخصوص العسكريين منهم مبادىء نجهلها !!.. »

مكثنا بالسويس لغاية يوم ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢١ . وقد قرأنا في بعض الجرائد العربية أن جريدة افرنكية ذكرت أن مركباً حربية قامت بنا من السويس الى سيلان يوم ٢٦ ديسمبر والحقيقة اننا لم نبرح معسكر السويس حتي يوم ٢٩ ديسمبر

في أثناء ذلك كانت تصلنا بعض الجرائد العربية والافرنكية فنعرف منها بعض ما يجرى في القطر من الامور . وكان الاهتمام بما جاءت به من الاخبار عظيما جداً كما أن الامل عند الرئيس وصحبه فى وثبة الامة ونهضتها لتلك الاهانة الشديدة كان أعظم . وقد قرأنا فيما وصلنا من الجرائد نداءين للمنشقين اولهما يتضمن الاحتجاج على اعتقال الرئيس وصحبه . وثانيهما يدعو الناس الى الهدوء والسكينة . وقد قال معالى الرئيس عنه « انه يدعو الى الرغبة في عدم الاهتمام بما تحدث به السلطة العسكرية الامة فى شعورها ثم هو فضلا عن ذلك ينسب للمصريين التعدى علي الاجانب ويبالغ فيه . ويظهرهم بمظهر الهمج المتوحشين . وكل هذا يجرح العواطف ويوجب شدة النفور . كما يجلب سخط الناس وغضبهم عليهم .. »

كان يغلب على الظن أنهم انما أبقونا بالسويس طول تلك المدة ليتأكدوا من اتمامهم ما بدأوا به . الحقيقة انهم كانوا يراقبون روح الاشمئزاز في القطر ليروا الى أى حد يمكن أن تصل . وقد كانت الروح شديدة علي ما كنا نرى فيما نقرأه في الجرائد القليلة التي كنت أحصل عليها من طريق خفى وأوصلها اليهم . ولكن لم تبلغ شدتها الدرجة التي توقفهم عن اتمام عملهم

كان قومندان وضباط المعسكر يبذلون جهداً كبيراً في سبيل توفير وسائل الراحة للرئيس وصحبه ويظهرون كثيراً من الاحترام لمعاليه وقد عينوا لهم خدماً من الهنود الذين كانوا يظهرون العطف والالم كلما سنحت الظروف . وكانوا يتناولون الطعام معاً

وقد دعى قومندان المعسكر الرئيس ذات يوم الى نزهة على ظهر الجواد فلبي الرئيس دعوته وصحبهما الاستاذ مكرم على ظهر جواد آخر . وكانت تلك النزهة هى قطع المسافة التى تفصلنا عن معسكر آخر يبعد عنا نحو ميل تقريباً . ولم أطمأن أنا لركوب الرئيس للجياد وأبديت عدم ارتياحى هذا لسينوت بك حنا عند ما ذهب الرئيس لتلك النزهة ثانى مرة فوافقني على ذلك القلق وصرح به للرئيس الذى لم يذهب بعد ذلك لتلك النزهة

(وعلمنا بعد ذلك ونحن بعدن أن جريدة من الجرائد الانجليزية، وعلى ما أذكر أنها المانشستر جارديان ، ذكرت أن معاليه كان يلعب الجولف على ظهر جواد بالسويس وانه قبل عضواً في جمعية الرفاق العسكرية . وهذا الخبر ليس له نصيب من الصحة

وقد طلب القومندان ونحن بالسويس أن يأذن له الرئيس وصحبه . في أخذ صورتهم الفتوغرافية مجتمعين فأخذ صورتين نشرت احداهما في مصر

في يوم ٢٥ ديسمبر كان عيد « كرستمس » . وقد احتفل به الهنود في المعسكر ودعينا لحفلة رقص في عنبر من عنابرهم ولما دخلناه قاموا صفوفاً ولم يجلسوا الا بعد ان استأذن الرئيس الضابط الذي كان قد دعانا الى هذه الحفلة . فجلسوا جميعاً على الارض متربعين ومقرفصين . ثم رقص واحد منهم لابساً ثياب نساء رقصاً يشبه رقص المصريات المتبرجات

وبعد ان جلسنا برهة انصرفنا : ـ

في مساء ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢١ حوالي الساعة الثامنة والنصف دعاني الرئيس اليه في غرفة المائدة اثناء تناوله طعام العشاء مع صحبة وضباط المعسكر . وأخذ يتكلم وعلى وجهه علائم الكدر والاستياء فطلب مني تجهيز الامتعة في الحال والاستعداد للرحيل من المعسكر بعد نصف ساعة . فعجبت لان يأتي مثل هذا الامر بهذه السرعة المدهشة . واسرعت لاعداد الحقائب وتبعني اصحاب الرئيس الى خيامهم لاعداد حقائبهم ايضاً . وقد علمت أن الرئيس وصحبه اظهروا الاستياء للقومندان من هذا التسرع وعدم انذارنا قبل ذلك بوقت كاف . وقال له الاستاذ مكرم اننا لسنا عسكريين حتى ننفذ مثل تلك الاوامر في مثل ذلك الوقت القصير . فاعتذر القومندان بأنه لم يستلم الامر بذلك الا منذ برهة فقط. ولكنا علمنا من اجوبة ما القيناه عليه من الاسئلة ، انه كان يعلم قبل ذلك بوقت طويل ، ولامر ما تكتم الى هذه الساعة .

كان من جراء ذلك الاسراع ان نسي البعض اشياء تتعلق به من امتعة وملابس .

كانت تلك الليلة ليلاء حالكة السواد شديدة البرد . وقد جاء القومندان يصحبه بعض من الجنود الانجليز لنقل الامتعة والحقائب الى الاتومبيل ثم تأبط ذراع الرئيس الذي سار امامنا بخطوات متمهلة وقد ارتدى بمعطفه للوقاية من برد تلك الليلة الشديد. سرنا نتبعهم حتى باب المعسكر حيث وجدنا سيارتين من سيارات النقل الكبيرة بالانتظار وبقربهما عدد من الجنود الانجليزية شاكي السلاح . فدعا القومندان الرئيس للركوب بجوار السائق في احدى السيارتين . وركب هو على يساره وطلب منا الركوب في الخلف مع الجنود فازدحمت الاقدام وصعد

معنا الطبيب الارلندى . وبدأت السيارتان فى السير بعد أن وضعوا الامتعة في السيارة الاخرى . وودع ضباط لمعسكر من الرئيس وصحبه

سارت السيارة بنا في ظلام حالك وبرد شديد . لا نعلم من أمر المستقبل المجهول الغامض شيئاً . سوي أن مركباً حربية تنتظرنا بالميناء لتبحر بنا الى وجهة مجهولة : ورغماً من كل تلك العوامل التى تدعو الي الروعة والرهبة أو علي الاقل الانقباض لم يكن باديا على الرئيس سوى السكون والتفكير العميق . وأصحابه سوى العزم والثبات وعدم الاكتراث وقلة الاهتمام . بل لقد أخذوا يتبادلون النكات ويرفعون أصواتهم عالية بالضحك في تلك الساعة الرهيبة

استمرت السيارة فى السير حتى اذ قربنا من الاحياء المأهولة بالبلد التفت القومندان الى الخلف والتفت الى الضابط الطبيب الموجود معنا وأخبره أنه يلزمنا الجلوس على ارض السيارة حتى لا يبدو من طرابيشنا شيء . فاقترح سينوت بك الاكتفاء بخلعها وعدم الجلوس على ارض السيارة القذرة ، فلم يجد ذلك نفعاً واصر القومندان على وجوب تنفيذ أمره الاول . ففعلنا كارهين ، ولاحظت اذ ذاك قلة عدد المارة في الشوارع وسكون الحركة فيها ، مكثنا كذلك حتى تجاوزنا الاحيـاء المأهولة وبعدنا عن المدينة ، ودخلنا رصيف الميناء فقمنا من مجلسنا هذا

وصلنا بعد ساعة من الزمن الى الميناء حيث وقفت السيارة ازاء صندل كان بآخره لنش بخاري بانتظارنا . ومكثنا برهة ريثما وصلت السيارة المقلة لامتعتنا فتبعنا القومندان الى اللنش . لزم القومندان الصمت عن ذكر اسم المكان الذى تقصده الباخرة بنا ، ولـكننا علمنا ونحن بالسيارة من أحد الضباط أن وجهتنا هي عدن ، وكنا قبل ذلك

مختلفين فيما بيننا بأنها قد تكون عدن أو سيلان ، ولكن لما علمنا بأن وجهتنا انما هي عدن استراحت القلوب قليلا وما كانت ثائرة ، ولكن بعد الشقة بيننا وبين سيلان وطول المسافة في البحر كان يدعو الى شيء من عدم الارتياح .

قبل أن يتحرك اللنش من مرساه ليوصلنا الى الباخرة ، نظرنا جميعاً نحو الأرض المصرية ، وبقلب كل امرىء منا ما به .

وقد دار بمخيلتي وقتئذ أن أسائل القدر بعدكم من الزمن يتاح لنا رؤية ذلك المكان ثانية ، وأرجح كثيراً أن ذلك السؤال تردد في نفس الجميع وقتئذ فقد رأيت علائم التأثر والألم تموج بشدة تحت مظاهر الثبات والاقدام ، تحاول أن تجد لها طريقاً تنفذ منه فلم تستطع الظهور في غير قطرة من الدمع انحدرت خلسة من المآقي رغم ما كان يعلو الوجوه من الابتسام .

في البحر الاحمر

تحرك اللنش وسار يمخر عباب الماء نحو نصف ساعة حتى وصلنا الى مركب كبير رسا بعيداً جداً عن الميناء ثم صعد القومندان الى الباخرة حيث اجتمع على حافتها عدد غير قليل من السيدات الانجليزيات والضباط الانجليز والجنود الهندية ، يلقون بنظرهم الينا كأنهم كانوا يتوقعون وصولنا ، وعاد بعد قليل من الزمن يصحبه رجلان أحدهما يرتدي ثياب البحرية الانجليزية ، وهو كهل قصير القامة يناهز الحلقة الخامسة من عمره حليق اللحية والشارب نحيل الجسم ، والآخر يرتدي ثياب الجندية برتبة كولونيل طويل القامة عريض المنكبين قوي البنية أشيب المفرقين .

قدم القومندان الرجل البحري الى الرئيس وصحبه بصفته قبطان

الباخرة «فرنـوافرديناند» فدهنا يده باشاً الى الرئيس فصافحه وصحبه .

ثم ساعده على الانتقال من اللنش الى سـلم الباخرة ، وصعدنا فى أثرهما ، وكنت أنا الأخير الذى ترك اللنش فلمحت به بحاراً مصرياً يبكى اختلاساً، ويحاول حبس دموعه المنهمرة خوفا ، فمررت بقربه وهمست بأننا ذاهبون الى عدن ، فلم يستطع الاجابة ، بل رفع رأسـه الى السماء وعيناه مغرورقتان بالدموع وتحركت شفتاه بكلمتين لم تصل الى سمعى .

لما وصلنا الى سطح الباخرة قدم القبطان ذلك الرجل الطويل القامة (الكولونيل) الى الرئيس وصحبه ، بصفته المنوط به مباشرة أمورنا حتى مقصدنا ، فصافحهم هذا باحترام وعرض عليهم أن يقودهم الى رؤية القمرات المعدة لهم ، فكان هناك قمرة متسعة نظيفة للرئيس وحده ، واخرى اقل منها اتساعاً لسينوت بك ، وفتح الله باشا . وثالثة للاستاذ مكرم ، وعاطف بركات بك ، ومصطفي النحاس بك، ورابعة لى وحدى وكانوا هم الذين وضعوا هـذا النظام فيما بينهم ، وكانت كل القمرات تضاهي قمـرة الرئيس من حيث النظافة والاتقان والترتيب ألا أنهـا أقل منها اتساعاً .

انتهي البحارة المنوط من نقل جميع أمتعتنا وحقائبنا من اللنش الى الباخرة ، وتلطف الكولونيل والقبطان فصرحا بوضعها جميعها فى القمرات تحت متناول يدنا بخلاف عادة البواخر ، فان الحقائب الصغيرة فقط هي التى يصرح بوضعها في القمرات .

ودعنا القومندان والحكيم الارلندى مصافحه وانصرفا بعـد أن عبرا عن تمنياتهما الطيبة لنا من رحلة جميلة وصحة جيدة ، ويسرنى أن أذكر أن ذلك الطبيب الأرلندي الذي جاء ذكره كثيرا كان لا ينفك

عن اظهار عطفه وحبه لنا، كلما سمحت الظروف بذلك، وكان حنانه واحترامه يتمثلان فى نبرات صوته عند محادثته لنا، ولن يغرب عن الفهم سبب ذلك اذ : لايعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

باح القومندان لنا بالوجهة التي تقصدها الباخرة بنا قبل رحيله وكانت قد كتمت عنا حتى الآن .

أخبر الكولونيل المنوط به مباشرة امورنا الرئيس وصحبه ان له الشرف فى أن يضع نفسه تحت أمرهم ، ويسر بتأدية كل ما يلزمه من الخدمات لتوفير أسباب راحتهم أثناء السفر . وسأل عما اذا كنا في حاجة الى عشاء أو شيء من المشروب فأجابوه بالشكر وكنا تناولنا عشاءنا بالمسكر قبل حضورنا الي الباخرة .

قيل لنا أننا سنبحر صباح الغد ، ولكن لما استيقظنا صباح ذلك اليوم ، وجدنا أن الباخرة صارت فى عرض البحر تمخر عباب الماء ، وليس من أثر للأرض حولنا لأن الباخرة قامت فى منتصف الليل .

كانت تلك الباخرة وأسمها فرنسوا فرديناند نقالة حربية معدة لحمل الجنود بين انجلترا والهند ، وهى كبيرة يجد المسافر بها راحة لا بأس بها، ونظيفة جداً، وجميع بحارتها وخدمها من الهنود والسنغاليين والبرتغاليين عدا القبطان والضباط فانهم كانوا من الانجليز ، وكنا نتناول الطعام بها خمس مرات في اليوم ، ولا بأس به فانه كان من نوع جيد الا أن به كثير من الخضروات المحفوظة بالعلب التى كانت نفس الرئيس لا تألفها كثيراً ، ومع ذلك فكنا نجد ما يكفى من أشياء اخرى كما اننا كنا نحصل على ما نرغب من المرطبات من بوفيه الباخرة وهناك صالون متسع للاكل ، منظم تنظيما بديعاً ، كانوا يتناولون فيه الاطعمه مع باقي السيدات والضباط من الانجليز، وكان الرئيس يتناول

طعامه على ظهر الباخرة أحياناً عند مايشعر بهزات الباخرة ويخشي الدوار

وهناك أيضاً قاعة للكتابة والمطالعة . واخري للجلوس وبها بيانو كان يعزف عليه في كثير من الاحيان الاستاذ مكرم الذى يجيد ذلك النوع من الموسيقي .

وكانوا يقضون الاوقات في الحديث ولعب الورق . ولكن كان فتح الله باشا بركات ومصطفي بك النحاس يجهلان اللعب به فكانا يقضيان ذلك الوقت الذى يلعب فيه الآخرون ، في السير جيئة وذهاباً على سطح الباخرة أو القيام ببعض الحركات الرياضية من قفز او جرى على سبيل التسلية والتمرين الصحى .

وكانت أسباب التسلية متوفرة تقريباً وكل يهون ويسلى صاحبه ما استطاع الى ذلك سبيلا .

وفى بعض الأوقات كانوا يجتمعون علي سطح الباخرة ويتلو أحدهم شيئاً من آى الذكر الحكيم ، ثم يتذاكرون في تفسيرها وتفهم معناها . وقد امتاز عاطف بك بركات والرئيس فى ذلك لالمامهما بالعلوم الدينية .

فى يوم أول يناير احتفل الركاب وضباط الباخرة بعيد رأس السنة الميلادية ، فصدحت الموسيقى وتخاصر القوم ورقصوا وشربوا وطربوا فقبعنا في قراتنا ولم نشترك معهم بناء على اشارة الرئيس .

كان معنا بالباخرة عدد عظيم من الجنود الهندية العائدين الى بلادهم وقد لاحظ عليهم معالى الرئيس أنهم كقطيع من الماشية ، من حيث معاملتهم وطريقة معيشتهم ، فكانوا يأكلون حيث ينامون ويغتسلون حيث يجلسون .

فقد كان هناك طبيب ضابط منهم برتبة ميجر عائداً الى بلاده وكان

يقيم معنا بمعسكر السويس وكثيراً ما تحادث مع الرئيس وصحبه وتناول الطعام معهم . كان اذا صادفه أحدهم فى طريقه بالباخرة لا يحييه الا اختلاساً و بعد أن يلتفت يمنة ويسرة وتطمئن نفسه لخلو المكان من ضابط انجليزى ولو أصغر منه رتبة .

اشتدت الريح في اليوم الثالث في البحر الأحمر وأخذت الامواج تلعب بالباخرة رغم كبر حجمها ، فأصيب معالى الرئيس بدوار البحر ولزم الفراش يوما وبعض يوم ولازمته طول هذه المدة للعناية به والقيام باحتياجاته ، وكان صحبه لا ينفكون عن التردد للسؤال عن صحته والاطمئنان عليه من حين لآخر .

ولما اعتدل البحر قبل وصولنا الى عدن بيوم تماثل معاليه الى الشفاء وتخلص من دوار البحر وعاد الى سطح الباخرة للجلوس مع رفقائه .

فى عدن

وصلنا الى عدن يوم ٢٤ يناير نحو الاصيل .

ولاحت لنا من بعد صخورها سوداء جرداء قاحلة ماحلة .

انتشرت فوقها بيوت أشبه بأكواخ على مسافات متقاربة ومتباعدة وما أن قربنا منها حتى اشتدت الحرارة وضاقت الانفاس، وكادت تزهق الأرواح ، فهرعنا الى سطح السفينة طلبا لاستنشاق الهواء ، فاذا بشبحها المخيف يلوح لنا كأنه مارد اسود انتصب في الماء ، جو ملكته حرارة الشمس المحرقة فلا يصيب القوم منها الا ناراً تشوى الوجوه ، بئس المقام وساءت منقلبا .

اجتمعنا على حاجز الباخرة مرسلين النظر ومستطلعين كنه ذلك المقام الجديد ، وكانت كلما اقتربت الباخرة منها تبدو للعين بوضوح أكثر حتى أصبح في الامكان رؤية الطرق والنباتات القليلة وكانت تلك

الجهة التي رست عليها الباخرة تسمي عند الانجليز « استيمر بوينت » ويطلق عليها أهالي عدن اسم كريدا .

رأينا من بعد بناية الجرك ودور الحكومة ، وبعض الابنية الاخرى منها كلوب لضباط الجيش والبحرية ، وكلها وان لم تكن كبيرة وبدت لنا من بعد كأكواخ . ولكنها كانت جميلة المنظر يري فيها آثار العناية والاهتمام . واستطعنا أن نري أيضاً حديقة صغيرة ، كما استلفت نظرنا واسترعى سمعنا نور وأبواق بعض السيارات التي كانت تسير رائحة غادية . وأمكنني تعرف نوعها ، فهي من نوع الفورد الصغير الذي يفضل استعماله كثيراً في مثل تلك البلاد ذات الطرق الضيقة والمنعطفات الصغيرة .

اقتربت من الباخرة قوارب عديدة وهي تختلف عن قواربنا النيلية بكونها أضيق منها عرضا وأطول منها كثيراً يديرها قوم من أهالي عدن ، وهم نحاف الاجسام سود الوجوه لا يرتدون لباسا سوي ثوب من التيل الابيض أو البفته يغطي النصف الاسفل من اجسامهم وبعضهم يترك النصف الاعلى عاريا ، والبعض يغطيه بشيء أشبه بالفوط التي تستعمل في حمامات السوق في مصر ، وكانت تلك القوارب بعضها يحمل فواكه وحوائج للبيع ، والبعض جاء لنقل الركاب الي الميناء ، وأخذوا يصيحون بأصوات كل ينادى على سلعته ، بألفاظ عربية ولكن لم نستطع فهم مايقولون ، رأينا كل ذلك ونحن على حاجز الباخرة ولم يك هو ما توقعناه وتخيلناه لانفسنا من النعيم في جنات عدن فاسقط في يدنا ، ولولا الحاجة الي تسلية البعض للبعض لارتد البصر خاسئاً وهو حسير ، ولكن لم يك بد من التأسى والتصبر فاتخذنا من الضعف قوة ومن القنوط املا ، وأخذ كل يهون على

الآخرين بما يستطيعه

لما ألقت الباخرة مراسيها ، اقترب اليها لنش وصعد منه جندي من جنود البوليس يتأبط أوراقا ، وهو يشبه جنود بوليسنا في مصر من حيث لباسه الا أن هذا حافي القدمين ، يميل الى السواد كثيراً ، ويمتاز بنحافة الجسم واتساع العينين ، وسار قاصداً غرفة القبطان ، وبعد قليل جاءنا الكولونيل ، وأخبرنا أنه لا بد من المبيت الليلة فى الباخرة حتى صباح الغد . لان المنزل المعد تهيأته لم يتم بعد ، فبتنا وأمامنا عدن بصخورها السوداء المظلمة والفكر مشغول بمصر وسهولها الخضراء اليانعة

استيقظنا صباح اليوم التالي و بعد تناول طعام الصباح جاء الكولونيل ومعه ضابطان عرفهما بالرئيس ، أحدهما متوسط القامة يضع منظاراً ذهبياً يناهز الحلقة الثالثة من عمره ، والثانى طويل القامة تلوح عليه مخايل النبل والامارة ، أقل من الاول رتبة اذ كان الاول برتبة كابتن والآخر برتبة ملازم أول ، صافحا الرئيس وصحبه وعرفنا انهما قد كلفا باصطحابنا الى محل اقامتنا الجديد. تبعناهما بعد أن ودع الرئيس وصحبه الكولونيل وقبطان الباخرة الذي أظهر رقة ووداعة واهتماما كبيراً براحة الرئيس وصحبه مدة السفر ، وركبنا اللنش بينما كان الجنود يشيرون الينا اشارات التحية وعلى وجوههم علائم التأثر والبشر

سار اللنش يمخر عباب الماء ومررنا في طريقنا بمراكب حربية كبيرة واخرى شراعية يبلغ حجمها نحو الخمس مرات من حجم ذهبياتنا النيلية ، وملونة بألوان بديعة ونقوش جميلة الصنع ، بديعة المنظر ، وكانت طرابيشنا المصرية ، تستلفت أنظار من نمر عليهم ممن بالقوارب والمراكب الشراعية من أهالي عدن ، فكانوا ينظرون الينا ونحن نمر بهم بسرعة

ويحملقون الينا بشدة ، ولكن لم يخاطبنا أحد منهم قط أو يجرؤ أن يشير الينا، ومررنا كذلك بمخازن الفحم وأحواض التصليح والترميم ، وكنا نسير بمحاذاة الشاطيء بسرعة كبيرة وما زلنا كذلك حتى بعدنا عن المباني وتجاوزنا الجهات المأهولة فمررنا وسط صخرين مرتفعين في الماء وظهر لنا من بعد بيت أشبه بحصن على صخر مرتفع جداً عن سطح الماء، فقلنا وبما كان ذلك وجهتنا لاننا لم نر قربه بيوتا غيره وسألنا الضابط فانبأنا بأنه هو

ورأينا بعد برهة لسانا ممتداً في البحر وبآخره «رافعة» لنقل البضائع من القوارب الى الرصيف ، وقد وقف على حافة ذلك اللسان نحو العشرة من جنود الانجليز مدججين بالسلاح ، وما أن اعتدل اللنش ورسا على ذلك اللسان حتى قفز الضابطان وساعدا الرئيس في الانتقال ثم صعدنا في أثره ومررنا وسط الجند الذين انقسموا ثلاثة أقسام على اليمين وعلى اليسار وخلفنا

فرشت أرض ذلك اللسان بالقش وقراميد الخشب ، فسرنا به نحو نصف ميل ثم عرجنا الى اليسار وتخطينا شريطا لسكة الحديد ومر بنا اذ ذاك قطار صغير كقطارات الترامواي ولكنه يسير بالبخار ما بين عدن ومكان قريب منها يسمى الشيخ عثمان ، وهو يشبه في نوع ما قطارات الترام في مصر غير أن ذاك لعبت به يد البلى والاهمال. رأينا أيضاً عربة يجرها جمل تحمل برميلا كبيراً كتلك التى كانت تستعمل في مصر قديما لحمل الماء يسير خلفها رجل من الاهالى حافي القدمين ، عاري الرأس، ائتزر بثوب أبيض وهو يصيح بالجمل صياحا منكراً، ليشجعه على السير ؛ ثم مررنا في طريق ضيق بين جبلين ، والفينا طريقا آخر عظيم الارتفاع يصعد الى أعلا ، وقف في أوله (أسفله) أربعة من الاهالى

يلبسون ثياباً افرنكية (كاكي) كثياب جنود الجيش المصري ، يحملون نقالة ذات غطاء مرتفع قليلا

وقف الكابتن ايستيل وطلب من الرئيس أن يرقد في النقالة ليصعدوا به ذلك المرتفع الشاق ، فاشمأزت نفوسنا ونفرنا من رؤية النقالة ، ولكن نظرة اخرى الي المرتفع الهائل جعلتنا نري ألا حيلة الا في أن يركبها الرئيس لتوفير مشقة الصعود عليه ، فرقد بها وحملها الجنود على الاكتاف وساروا وسطنا بينا نحن صعدنا على الاقدام

استغرق ذلك الطريق الصاعد نحو العشرين دقيقة ، وانتهينا في آخره الى البناء الذى اعد لسكننا وهو مبنى على شكل الحصون ، ويتكون من طابقين اعد الاول منهما لاقامة الضباط والجنود المكلفين حراستنا ، والثانى منهما لاقامتنا ، ورأينا بقربه بناية ذات غرف متجاورة تبلغ نحو الـ ٦ حجرات وعلمنا بعد ذلك أنها خصصت للجنود الوطنيين الذين يساعدون الانجليز فى وظيفة المراقبة والحراسة ، وبها يقيم الخدم أيضاً

صعد الضابط السلم وتبعناه يتقدمنا الرئيس وانتهينا الي بهو كبير الاتساع ، ينقسم الى قسمين بواسطة ذلك السلم ، فالقسم الايمن يحتوى على ثلاث غرف وحمام ، والايسر على ثلاث غرف وحمامين ، وقد اعد القسم الاول لسكن الاعضاء والثانى لاقامة الرئيس وأنا ، وبه أيضاً غرفة المائدة التى كانت على يسار الصاعد من السلم ، وضعت فى وسطها مائدة كبيرة مستديرة حولها ٦ مقاعد ، وتدلي فوقها من السقف «كلوب» يعطي نوراً قوياً ، وبداخلها غرفة اخرى اصغر منها اعدت لتهيئة الطعام ، وبجانب غرفة المائدة هذه غرفة متسعة في وسطها سرير كالذى يستعمل فى المستشفيات وفرشت أرضها بقطع من البساط

البسيط وبها منضدة صغيرة وكرسيان كبيران وبجانب السرير ، طاولة صغيرة عليها شمعدان صغير ، تلك هي الغرفة التي اعدت للرئيس ، وكان بداخلها غرفة اخري صغيرة ليس بها شيء من الاثاث سوى سرير وكرسي ، وهى التى اعدت لي

وهكذا كان أثاث باقي الغرف غير أن اثنتين منها وضع في كل منهما سريران ، فاحداهما كانت لفتح الله باشا وسينوت بك ، والاخري للاستاذ مكرم ومصطفى النحاس وثالثة صغيرة لعاطف بركات بك ، لا يزيد الاثاث عن سرير ومنضدة وكرسى لكل واحد ، وكان بها أيضاً قطع صغيرة من الابسطة . وبالجملة فقد كان المكان من حيث اثاثه كمنازل الطبقة المتوسطة عندنا ، وفيما عدا ذلك كان « بالفراندا » كراس كبيرة عديدة ، ومنضدة كانوا يستعملونها للعب الورق والكتابة ، وكان هناك أربع غرف صغيرة أيضاً اعدت كحمامات احداها خاصة بالرئيس وحده واخري بفتح الله باشا وسينوت بك وثالثة بالاستاذ مكرم والنحاس بك وعاطف بك ، ورابعة لى وحدى ، وبداخل تلك الحمامات توجد المراحيض أيضاً التي كانت عبارة عن جردل يوضع عليه شبه كرسى من الخشب فى ركن من الغرفة ، وفي الركن الآخر مصطبة مربعة تبلغ متراً مربعاً مرتفعة عن الارض نحو قدم وبها حوض من الصاج يسع الانسان جالساً ، وأبريقان أيضاً لحمل الماء ، ولفانو بسيط جداً لغسل الوجه ، ذلك هو ترتيب الحصن الذى كنا نقيم فيه بعدن ، وليس به سوى ما ذكرت ، وكنا نستضيء بفوانيس تضاء بزيت البترول ، عدا غرفة المائدة التي كانت تضاء بكلوب كبير كما ذكرت

وقد أعدوا لخدمتنا ثمانيـة من الخدم ، طباخ ومرمطون ؛ واثنين لغسل الثياب وكيها ، وآخرين لخدمة المائدة ، وسابع للمساعدة

فى تنظيف الغرف وثامن خاص بالمراحيض فقط ، وجميعهم كانوا من مستوطنى عدن الذين نزحوا اليها من بلاد الصومال ؛ سود الوجوه ، نحاف الاجسام ، يلبسون ثوبا من القماش الابيض يشبه القفطان، ولكنه أقصر منه بكثير ، ويبدو تحته سروال طويل من البفتة أيضاً ، يصل الى الكعب ، واحيانا كانوا يأتزرون بفوط حمراء ملونة ؛ كفوط حمامات السوق ؛ ويلبسون فى أرجلهم نعالا عربية، كما يضعون على رؤوسهم عمامات عظيمة بيضاء ، وكانوا كلهم من المسلمين ؛ وأسماؤهم كالاسماء المصرية التي تعودناها فهم جمعه وموسى ومحمد وعلى ، وكانوا يخدمون الرئيس وصحبه بنشاط واخلاص واحترام كبير ، والسبب في ذلك يرجع الى الرابطة الشرقية والعاطفة الدينية

يتكون طعام الصباح من السمك والبيض والشاي واللبن والزبد والجبنه ، والغداء من لحوم الضأن أو البقر أو الطير ، والاسماك والخضروات والحلوى والجبن والفاكهة ، والقهوة ، وكذلك العشاء

والاسماك هناك جيدة جداً وكذلك اللحوم والخضروات التي لم تكن متوفرة بأنواعها ، ومع ذلك فلم يك الموجود منها بالقليل ، وما كان الطاهى ليحسن طبخ الطعام كما في مصر ، ولكن لم تك النفس لتعاف ما يصنعه قط ،

وكانوا يأتون لنا بكثير من مياه اڤيان وفيشي للشرب والليمونادة والصودا ، كما كان البن والشاى والسكر والجبن من أنواع جيدة

والفاكهة لم تكن من غير التفاح والموز والبرتقال ، ولم يكن يزرع شيء منها في تلك البلاد ولكن تأتيها من الخارج ،

كما كانوا يأتون الينا بما يزيد عن حاجاتنا من السكاير المصرية ، التي

تصنع في عدن والانجليزية ايضاً ، وبالجملة فقد كانت جميع حاجيات المأكل والمشرب متوفرة جداً

ولما كان الجو هناك حاراً احتجنا لملابس صيفية لان ما كان معنا منها شتوياً حيث خرجنا من مصر في الشتاء ، فاحضروا لنا خياطاً هندياً صنع لكل منا ما احتاجه من بيجامات وملابس داخلية وغير ذلك اما ما كان يلزمنا مما يوجد في حوانيت المدينة، فكان يحضره الكابتن ايستيل عند زيارته لنا كل يوم

وكان يأتي عندنا حلاق من المدينة كل اسبوعين مرة لقص الشعر ، وهو شاب من جزيرة سيلان ، سألته مرة عن مركز بلاده في المدينة فسمعت ماشوقني اليها ، وكنا سئمنا الاقامة في عدن بل كرهنا النظر اليها ، ولو انها اقرب الى مصر من سيلان ، ولكن

على ان قرب الدار ليس بنافع اذا كان من تهواه ليس بذي ودّ

ولم يك ذلك الشاب يفهم العربية التى كان يفهمها اهالى عدن وخاصة منهم الذين كانوا يخدموننا بقليل من الصعوبة . لذلك كنا نخاطبه بك ماهراً ولكنه كان على شيء من النظافة

لم يسعدنى الحظ بالخروج من ذلك السجن مرة منذ ان وطئته قدماي للمرة الاولى . الا للذهاب الى جزائر سيشل مع الرئيس ، رغم أن الاعضاء كانوا يستطيعون التنزه ساعة فى عصر كل يوم في فضاء بين الحصن وحظيرة للابقار قريبة منه لان الرئيس لم يكن يصحبهم فى تلك النزهة بل يفضل البقاء، لذلك كنت ابقي معه ، ورغم انهم ايضاً استطاعوا الخروج في سيارة والمرور فى وسط المدينة ، ورؤية حوانيتها وشوارعها ، فى طريقهم الي المستشفي حيث كان الاستاذ مكرم مريضاً ، كما سيجيء الكلام عن ذلك ، ولم يصرح لى أنا بزيارته مثلهم ، لذلك

لا استطيع الكتابة عن كل ما كنت احب الاطلاع عليه من احوال المدينة ، وشكلها ، ولكني سأكتب ، ماوقعت عليه عيناي من بلكون الحصن ، وما وصل الى سمعي من افواه الخدم الذين كانوا من مستوطني هذا البلد ، يقع ذلك الحصن ويطلقون عليه اسم اتستمث بنجلور في جهة تسمى جبل الحديد ، مابين عدن وبلدة قريبة منها تسمى الشيخ عثمان ، وتبعد عن الاولى مسير نصف ساعة بالسيارة وعن الثانية مسير عشرين دقيقة بالسيارة ايضاً ، ويشرف على اربع جهات ، فيمتد البحر امامنا الى مدى ما يبلغ البصر ، وقد انتشرت به البواخر الحربيــة والتجارية رائحة غادية في طريقها ما بين انجلترا والشرق وبعضها يمكث يوماً أو اكثر لأخذ مايلزمها من محطات الفحم ، ثم القوارب الشراعية التي كانت تروح وتغدو بين عدن والجهات القريبــة منها ، وكذلك قوارب الصيد مابين صغيرة وكبيرة ، وهم يصطادون السمك بالشباك كما يفعل المصريون ، ويقع وراءه سهل مرتفع يمتد الى يسارنا حيث كنا نبصر فى مدي البصر اكواماً بيضاء صغيرة ظنناها باديء الامر خيام معسكر ، وكأنها كانت اكوام من الملح ، ولم نك نبصر بمباني قط فى ذلك السهل المتسع ، سوي حظيرة للابقار على مسافة نصف ميل من الحصن ، وبجوارها بعض اكواخ حقيرة من الطين ، اعدت لسكن الرعاة العرب ، وتمتد على اليمين سلسلة تلال صخرية سوداء قاحلة ، وكنا اذا جن الليل نمسي في سوادحالك يكتنفنا من كل حدب وصوب فلا نبصر الا ظلاماً فى ظـلام ، وكانت الرياح تمر بشدة بين نتوء تلك الصخور القريبة منا ، فنسمع لها صوتاً مريعاً ، يساعد الظلام فى الباس المكان رهبة موحشة وروعة مقبضة ،

وفي بدء اقامتنا بذلك المكان لم نك نتمتع بنوم هاديء عميق نظراً

لاصوات تلك الرياح المنكرة اذ كانت كزئير الاسود وصفير الافاعي وعواء الذئاب في وقت معاً ، وقد الفها البعض منا بعد ذلك ، والبعض الآخر لم يمكنه ترويض نفسه عليها ، كالرئيس وعاطف بركات بك ،

وقد سمعت الرئيس يقول مراراً أنه لم ينم قط استغراقاً في عدن ، وغالباً ركنا نجرع جميعاً من نفس هذه الكاس

كلانا على هم يبيت كأنما بجنبيه من مس الفراش قروح

كنا نقضى كثيراً من الاوقات مطلين من حاجز البلكون الخشبي الذى يشرف على طريق تمر به بعض السيارات ومركبات الترام الذاهبة الى بلدة الشيخ عثمان والعائدة منها ،

ويلاحظ الرائى بعد وقت أن معظم العربات تقريباً تجر بواسطة الجمال ، ولم نر من مرصدنا هذا الا القليل جداً من الخيل التى اظن أنها لاتوجد بكثرة في عدن ،

كان مما استلفت نظرنا أن اغلب من يمرون بنا ينظرون باحتراس الى فوق حيث نحن موجودون وقد عرفت من الخدم أن الاهالى بعدن يعرفون جيداً بوجود قوم من كبار المصريين بذلك الحصن ، وقد سألتهم (الخدم) عما اذا كان بعدن أحد من المصريين وعلمت بأن بها عدداً قليلا منهم يزاولون التجارة

لم أر عدنياً قط يرتدي البدلة الاوروبية ، وكان غالب رداء من يمرون بنا ثوبين من البفتة البيضاء أو القماش الكثير الالوان يلتفون بأحدهما الى البطن ويرسلون الآخر على الكتفين ويلبسون عمامة بيضاء كبيرة وبعضهم يسير عارى الرأس ، وتمتاز الطبقة الموسرة منهم بلبس حذاء بدل النعل واختيار الثوب من القماش الثمين كالحرير أو غيره من المنسوجات النفيسة ورأيت نساءهم يرتدين مثل ذلك الثوب ايضاً الا

أنه يظهر عليهن مهلهلا لا تبدو منه تقاطيع الجسم ، ويغطيهن من قمة رؤوسهن الى اخمص اقدامهن .

وتغلب فيهن السمنة بعكس الرجال الذين يمتازون بنحافة الاجسام ،

واهالى تلك البلاد خليط من العرب والصوماليين والهنود واليهود الذين يوجدون بكثرة ، وكذلك اليمنيين ، ولغتهم السائرة بينهم هي العربية المزدجة بكثير من كلمات لغاتهم ولهجاتها المختلطة ، ويمكن التفاهم مع كثيرين منهم بالانكليزية التى كنت اعمد اليها غالباً فى محادثاتى مع الخدم عند ما يعييني افهامهم ما ابتغى بالعربية المصرية أو العربية الفصحي

لقد امتلك الانجليز تلك البلاد عام ١٨٣١ ميلادية ولست هنا فى مقام البحث عن اسباب ذلك ولكنهم يقولون انهم استولوا عليها ليضعوا حداً لاعتداءات العرب على المراكب الانكليزية وسوء معاملاتهم لها في طريقها الى الهند

وعدن هي المدينة الوحيدة والميناء ذات الاستحكامات في بلاد العرب، ومركزها فى البحر الاحمر كمركز جبل طارق للبحر الابيض المتوسط ويقولون انها اجل مواني بلاد العرب ؛

ويبلغ عدد سكانها نحو الـ ٥٠٠٠٠ نسمة ،

وأهم صادراتها البن والاصباغ وريش النعام والصمغ ؛ ويتكون اقليمها من شبه جزيرة صخرية يصلها ببلاد العرب برزخ رملي منخفض ،

واهميتها الحربية لانجلترا كبيرة ، وهى ميناء مهمة للبواخر اومستودع للفحم ؛

وبالنسبة لمركزها التجارى فليس لها نظير فيما يجاورها من البلاد وبها محطة لاسلكية عظيمة الاهمية ، بين الهند وانجلترا ، كما أن بها ايضاً التلغراف المائى ،

وتهب عليها فى فصل الصيف رياح ساخنة جافة ، تحمل معها رملا ناعماً جداً ينفذ الى داخل البيوت ويختلط حتي بالاطعمة ، وحرها فى ذلك الفصل لايطاق كما سمعنا من كثيرين من الضباط الانجليز وخاصة منهم الكابتن ايستيل الذي كان يباشر امورنا ، اذ قال غير مرة أنه لايمكنه لمس الفراش في الصيف ، بل ينام على حصيرة يضعها على البلاط ،

كانت حياتنا في عدن متماثلة مملة تدعو الى السأم والانقباض ؛ طمام فحديث فسمر فرقاد

كان الرئيس يستيقظ من نومه مبكراً جداً حوالي الساعة الخامسة والنصف أو السادسة ، وبعد أن يغسل وجهه ويرتدى ثيابه يجلس خارج غرفته بالبلكون يطالع درسه الانجليزى الذى بدأ فيه حوالى منتصف شهر يناير وكان يهتم به كثيراً جداً ، حتي انه بلغ الامر منه أنه يجلس الساعات الطوال يطالع تلك اللغة بمساعدة الاستاذ مكرم ؛ وبلغ من مغالاته فى الانهماك بها ان كان يقرأها حتى فى فراشه وأبان ساعات نومه ؛ ولم تقل ساعات مذاكرته يوماً عن ست ساعات على أقل تقدير حتى أن اصحابه كثيراً ما اظهروا عدم ارتياحهم الى انهاك قواه العقلية بهذا الشكل ؛ وانحوا باللائمة كثيراً على الاستاذ مكرم الذي كان يقوم بدرسه له ؛ وكان يدرسها فى بعض الاحيان ايضاً على عاطف بركات بك ولكنه كان يفضل درسها على الاستاذ مكرم ؛ وكنت اساعده دائماً في تفهم معانيها ومخاطبته بها ؛ وتمرينه عليها ؛ وكان الاستاذ مكرم يدعونى لذلك احياناً على سبيل المزاح مساعد معلم الرئيس ،

قلت أنه كان يجلس كل يوم فى الصباح بالبلكون بعد أن يرتدى ثيابه يطالع كتاباً فى الانجليزية ، الى أن يحين موعد الفطور ،

وفي كثير من الاحيان كان يستيقظ عاطف بك مبكراً أيضاً ويجلس

بأزاء الرئيس لمطالعة الدرس الانجليزي ، وفي الساعة الثامنة يكون أول الداخلين الى غرفة المائدة مع عاطف بك ثم يتبعهما بعد ذلك النحاس بك وفتح الله باشا وسينوت بك فالاستاذ مكرم الذى كان كثيراً ما يكون هو الاخير في الحضور الى المائدة

كيف كان الرئيس وصحبه يقضون اوقاتهم

وفي أثناء الطعام يتجاذبون أطراف الحديث الذى يدير دفته الرئيس والاستاذ مكرم غالباً ، وعند انتهاء الطعام يجلس الرئيس مع الاستاذ مكرم الى درسه الانجليزى ، وينفرد عاطف بك بركات بكتاب يطالعه أو بمذاكرة اللغة الفرنسية التى كان مولعاً بها ويساعده فيها أحيانا مصطفى النحاس بك ويجلس فتح الله باشا لتلاوة القرآن أحيانا وأحيانا كان يجلس للحديث مع عاطف بك وسينوت بك وهكذا الى أن يقرب وقت الغداء ، فيقوم الرئيس لأخذ حمامه اليومى ثم يخرج الى غرفة المائدة حيث تكون الساعة الاولى بعد الظهر ، وبعد الانتهاء من الطعام يخرجون الى النوم مباشرة ويستيقظون منه حوالي الساعة الثالثة والنصف لتناول الشاي ويذهبون جميعاً عدا الرئيس وأنا للنزهة اليومية خارج الحصن، صحبة الضابط النوبتجي لمدة ساعة من الزمن ، فى المسافة الواقعة ما بين الحصن وحظيرة الابقار القريبة منه ، ويتبعهم عن بعد جندي من الاهالى .

وكان الباعث على عدم خروج الرئيس كل يوم للنزهة هو أنه كان يرى مشقة عظيمة فى الصعود والهبوط من الوادي الى البيت ، وكان يكره النظر « الى الديدبانات » المنتشرة حولنا هنا وهناك وذلك لشدة حبه للحرية الامر الذى جعله ينفر من كل مظهر من مظاهر الظلم والقسوة. وبهذه

المناسبة اذكر أنه عندما صعدنا لأول مرة الى سجننا والقينا نظرة على الغرف وأثاثها البسيطة ومحتوياتها القليلة . نظر معاليه ملياً ثم قال هذا أحسن ...

فأجبته وكنت بقربه وسنكون بمعزل عنهم لا يرونا ولا نراهم ؛ فقال احسنت جداً ؛ وهذا ما أردت أن أقوله ..

ثم التفت الى فتح الله باشا وسينوت بك ومدح لى دقة ملاحظتي تواضعاً منه وتلطفاً ؛ وفي أثناء ذلك كنت اسير بصحبة الرئيس جيئة وذهابافى البهو ونتحادث بالانجليزية . لاجل تمرين معاليه عليها ، وعند عودتهم يجلس سعد باشا والاستاذ مكرم وعاطف بك والضابط النوبتجي وسينوت بك للعب الورق ؛ ويجلس فتح الله باشا والنحاس بك للعب الدومينو ، وقبل أن يحين ميعاد العشاء الذى كنا نتناوله عادة حوالي الساعة الثامنة يقوم الرئيس وصحبه للسير في البهو مدة نصف ساعة ، وأحياناً كنت أمارس ومصطفى النحاس بك وفتح الله بركات باشا ، والاستاذ وليم مكرم بعض الحركات الرياضية من قفز أو ركض ، وبعد تناول طعام العشاء الذى كانوا يدعون اليه فى كثير من الاحيان الضابط الانجليزى النوبتجى ، يجلسون للحديث والسمر فيقص عليهم معالى الرئيس شيئا مما وقع ورآه ابان الحوادث العرابية وبعدها .

احاديث الرئيس

وقد حكي لنا معاليه أنه كان يجتمع مع المرحوم الاستاذ الشيخ محمد عبده وغيره عند السيد جمال الدين الافغانى للدرس وكان صغير السن وقتئذ فكتب مقالة فى الوطن وعرضها على السيد جمال الدين فمدح له حسن اجتهاده ، وقال له مازحا ، أنى لارثي لبلد تكون أحسن كاتب فيها

وقد عبر لنا عن رأيه في كثير من رجال الحركة العرابية وقص علينا ما رآه رأي العين منهم .

رأيت مرة معاليه ، وكنت واقفاً قريبا منه علائم التفكير العميق والألم الخفي تلوح على وجهه ، فقلت مخاطباً معاليه ، لا شك في أن ثمار هذه التضحية التى تبلغها معاليكم عن رضا وطيبة خاطر ستكون عظيمة جداً ، فأجابني وقد ومض بريق العزم في عينيه «وأى تضحية ! انى لا أراني ضحيت شيئا بالنسبة الي الذين بذلوا أرواحهم وهي أعز شيء لديهم فى سبيل مصر . نحن ننعم بما نشتهيه من مأكل وملبس ولم نخسر شيئا سوى تقييد حركاتنا .» وهذا مثل عظيم، من عظيم، لانكار الذات.

واجتمعوا مرة يتحادثون فقال صحبه انه لاشيء يؤلمنا في منفانا قدر ما تؤلمنا رؤيانا لمعاليك تعانى الشدائد والاخطار ، فأجاب «ليس الأمر كذلك وانما يوجد بينكم من هو أحق مني بالتألم فمنكم من ترك أولاداً ومنكم من ترك خطيبة» ثم نظر الى الاستاذ مكرم مبتسما.

وان أنس لا أنس قوله يوما وقد رمي بنظره البراق بعيداً ، «انى لاقابل الموت بصدر رحب لو أن في موتى حياة لبلادي» وهكذا كان معاليه يلقى علينا الأمثولة تلو الاخرى من حين لآخر ويعلمنا البطولة كيف تكون .

وللمناقشة فيما كان يصلنا من أخبار مصر بواسطة التلغرافات أو الجرائد التى كان يأتي بها الينا الكابتن ايستيل ، أو للعب الورق والدومينو على الترتيب الآنف الذكر ، وهذا هو نظام معيشتنا ، وكيفية قضائنا الوقت بعدن .

كان يبلغ عدد القائمين بحراستنا أربعة من الضباط ، خلاف الكابتن ايستيل ونحو العشرين جنديا من الانجليز يتناوبون الحراسة ليلا ونهارا

ويساعدهم في تأدية هذه الوظيفة ثلة من رجال بوليس عدن يتناوبون الحراسة أيضا على مسافة من الحصن .

مرض الاستاذ مكرم

أيام حزن

اصيب الاستاذ مكرم بحمي الملاريا فلزم من جرائها فراشه زمنا طويلا ، وكان يعوده الطبيب الذي اعتاد زيارتنا من حين لآخر وهو ضابط في الجيش البريطاني برتبة ميجر ، انجليزي الجنس ، وقد كان الكدر لمرض الاستاذ عظيما جداً ، خصوصا عند اشتداده فكنا لا نفارق سرير المريض في كثير من الأحيان ونطلب له الشفاء العاجل بقلوب حارة ، ورغم العناية الكبري التي بذلت في سبيل انقاذه من بين براثن تلك الحمة الخبيثة فقد استمرت حالته الصحية من سيء الى أسوأ ، الي اذ أدت الحالة الى طلب الدكتور أخذه الى مستشفى الجيش وهنا حدث ولا حرج عن البكاء وصرير الاسنان ، فانه عزيز علينا أن ينتزع من أفئدتنا الاستاذ مكرم ، وقد كانت آلامنا عظيمة جداً من مجرد التفكر في أن يخرج من بيننا مريضا الى حيث يوضع بين يدي القدر يعاني آلام الوحدة فوق آلام المرض .

استولى الحزن على القلوب وتملك الاسى أفئدة الجميع . وعارض الرئيس صحبه في نقله الى المستشفى وأبدوا ما ذكرته من الاسباب بخصوص تأثير الوحدة عليه الى الطبيب وأفهموه أنهم لا يخشون العدوى ، وانهم جميعا مستعدون للعناية به كما يريد الطبيب ، فلم يأت ذلك بثمرة ولم يك بد من التسليم للقدر والتفريط رغم انوفنا في ذلك العزيز ، ولولا شدة الثقة في لطف الله وعنايته لذابت الافئدة أسى ، وتقطعت القلوب حزنا ، وسالت العيون عبرات ، وفطرت الا كباد دما .

وجاء ذلك اليوم المشهود ، وحانت تلك الساعة المحزنة التى لن تمحو من الذاكرة . نعم جاء ذلك اليوم ، اليوم الاول من أربعة أيام هي أشد ما لاقيناه في المنفى ، جاء ذلك اليوم ، يوم حمله على الاكتاف مريضا نصف غائب عن الصواب ، من شدة تأثير الحمي عليه ، جاء الطبيب ومعه أربعة من الجنود يحملون نقالة لينتزعوه من بيننا ، ويمينا لقد كادت المقلة تنتزع او كأن الافئدة في مخالب طائر يشد به قبضا ، دخلوا على المريض بتلك النقالة ونقلوه من سريره فوضعوه عليها ، ونحن وقوف حوله صامتون كآبة ، ولولا عزة فى النفس أحببنا أن تكون ظاهرة جلية أمام القوم في تلك الساعة لتعالت الاصوات بالبكاء وبللنا الاديم بالعبرات ، ولكن لم يك من مندوحة عن التأسى والتصبر ، ومغالبة البكاء الى أن ينفرد كل الى نفسه .

ساروا به وقد وضعوا عليه غطاء ابيض ، ونزلوا به الى السلم وهو ممدد على ظهره ووجهه الينا ، يبسم لنا ابتسامة تذيب الافئدة وتفتت الاكباد . وقد كانت تلك الابتسامة منه ذات معنى كبير سام ، فانه أراد تشجيعهم وتخفيف الحزن عنهم حتى في تلك الساعة التى كان فيها فريسة بين براثن الحمى .

ساروا يتبعهم مصطفى النحاس بك الذى أسعده الحظ بعد بذلهم جهداً ، في اجابة سؤلنا ، بالتصريح له فى مرافقة المريض الى المستشفى للزيادة من العناية به وتسليته .

وما أن تواروا فى آخر السلم ولم يبق بيننا رقيب أو غريب حتي انفجر ذلك الحزن العميق الذى كاتمناه طويلا وانحدرت الدموع الحارة من العيون .

غابت عنا شمس انسنا وسرورنا وتركتنا فى داج من الظلم غرقي في

بم من الاسى والدموع .

مرت بضعة أيام جاءنا في خلالها الكابتن ايستيل بخطابات من مصطفي النحاس بك يعرفنا عن صحة الاستاذ مكرم وحالهما بالمستشفى فكانت درجة الحرارة آونة في ارتفاع يزيد قلقنا ويؤجج سعير الوجد والاشفاق في صدورنا ، واخرى في انخفاض يثلج من افئدتنا ويلقي الامل والاطمئنان في قلوبنا .

صرح الحاكم بعد ذلك أن يذهب الرئيس وصحبه كل على حدته يوما لزيارة المريض بالمستشفي ، وكان يصحب الزائر أحد الضباط ، في سيارة الى هناك ، فكان في ذلك تخفيفاً للوعة الوجد وتلطيفا لآلام القلق اذا كنا نعرف يوميا شيئا عن صحة الاستاذ .

ودب السرور في القلوب عندما تقدمت صحته للشفاء وبشرنا بقرب عودته ، وقد حدثنا الاستاذ مكرم ومصطفى بك النحاس عند عودتهما عما لاقياه في الاسبتالية قالا : وضعونا في غرفة يقفل عليها بباب ضخم من الحديد ، وكانت تلك الغرفة معدة فيما سبق للمرضى من الاسرى الاتراك الذين كان يؤتى بهم أيام الحرب الى عدن . وقد هجمت علينا جيوش جرارة من البعوض والبق وما أشبه ، فدافعناها ما استطعنا فلم ننل منها قليلا ولا كثيراً ، ونالت هي من دمائنا ما رفع صوتنا عاليا بالاستغاثة وطلب النجدة ، ومن سوء حظنا أو حسن حظ تلك الحشرات انه لم يصرح لنا باستعمال الناموسيات الا بعد أن بح صوتنا من الصراخ والنحيب الذى خشوا وصوله الى سمع مسترق ..

وصول انباء مصر

لما زار المنشقون بيت الأمة بعد اعتقال الرئيس ، ووصل الينا نبأ ذلك ، أظهر الرئيس وصحبه غاية الاستياء . وأبدوا مزيد الشك

والريبة فى اخلاصهم، وأملوا أن يكون واصف بك غالى محتاطا متوخيا الحذر من لدغ العقرب مرة ثانية . وقد تأكدوا من سوء قصد المنشقين لما وصل اليهم تصريح المكباتى ببيت الامة من أن مسألة سعد باشا مسألة شخصية وتذاكروا فيما كان بينه المكباتى بك ، واسماعيل صدقي باشا وعبد العزيز فهمى بك من عوامل التفريق والفشل بين أعضاء الوفد لما كان في باريس كما قالوا أن الغرض من مجيء أولئك القوم الى بيت الأمة انما هو لأمل تولى الزعامة والقبض على دفة الامور ليتمكنوا من تسييرها حسبما اقتضت أهواؤهم ، وشاءت أغراضهم السيئة . ولكن يقظة الامة، وقفت حائلا دون مبتغاهم ، وكشفت الستار عن سوء نياتهم.

لقد كان الاعتقاد تاما فى أنه اذا لم تؤلف وزارة فلا مندوحة من رجوعنا الى الوطن. كما كان البعض يميل الى الاعتقاد بأننا سوف لا نمكث طويلا بعدن وقد جدت بعد ذلك أسباب تحمل على التفاؤل كثيراً . أولها ، ان الكابتن ايستيل وهو المكلف بمباشرة أمورنا ، صرح لنا فى بدء وجودنا بعدن أنه يظن أن اقامتنا بعدن لا تزيد عن اسبوعين ، ولم يقل الى أين نذهب بعد ذلك .

وكنا نظن نحن أننا سنذهب بعد ذلك الى سيلان . ولكن لما مرت اضعاف تلك المدة . ولم نزل بمستقرنا بعدن وجاءتنا الاخبار بالافراج عن معتقلى قصر النيل الذين كان وصل الينا خبر اعتقالهم ، دب الأمل فى نفوسنا . وأخذ الرجاء يتمشى في قلوبنا واتحد الجميع في الرأى بأن ذلك دليل على قرب انفراج الأزمة ، ومقدمة لرجوعنا الى الوطن، ولقد سمعت الرئيس يقول ذات ليلة أنه يميل كثيراً الى الاعتقاد بأن أمر الافراج عنا قد صدر وربما تعلم به السلطات في عدن ولكن لماذا لا ينبئونا به (وكان قد مضى اسبوع على الافراج

عن معتقلي قصر النيل) .

وفي أثناء مرض الاستاذ مكرم بالمستشفى صرح بعض أصحاب الرئيس للآخرين ، بأنه لو جاءهم أمر الافراج عنهم فسوف لا يبرحون عدن بدونه وقد كان ذلك رأى الجميع على ما أرجح .

خبر السفر الى سيشل

ولكن مرت الأيام فالاسابيع ولم يأتنا ما نحن بانتظاره على أحر من الجمر وما نعد اللحظات شوقا اليه واعنى به أمر الافراج، بل بالعكس فوجئنا بما لم نك ننتظره وهو خبر نقلنا الى جزائر سيشل وكان ذلك صباح أحد الايام اذ حضر الكابتن ايستيل وبيده تلغراف رويتر ولم يك موجودا «بالبلكون» الا الرئيس وأنا ، أما باقي صحبه فكانوا بغرفهم ! وخاطب الكابتن ايستيل الرئيس قائلا ، هنا خبر قد لا يكون سارا ! ومد يده بالتلغراف فتناوله الرئيس وأعطاه لى، ولم يبد عليه أنه فهم قول الضابط ، نظراً لأن الاخير قاله بصوت منخفض، وبسرعة اخذت التلغراف والقيت عليه نظرة فرأيت انه تقرر نهائيا. نفى زغلول باشا واصحابه الى جزائر سيشل.

فقرأت ذلك على الرئيس ببطء ولم يخف على النظر ما ظهر على وجه معاليه وقتئذ من التجهم والانقباض ، وسمع اصحاب الرئيس اصواتنا فخرجوا من غرفهم وعلموا بالكارثة الجديدة . وسألنا الضابط عن مكان تلك الجزائر ، فقال انها فى الشمال الشرقي من مدغشكر ووعد ان يوافينا بما يمكنه الحصول عليه من المعلومات عنها .

تلقينا تلك الضربة الشديدة برباطة جأش وصبر جميل رغم ما تملكنا بادىء ذي بدء من غيظ ودهشة واضطراب وجاءنا الكابتن ايستيل بعد ذلك بمعلومات لم تزدنا الا نفوراً من ذكر سيشل ولكنه قال ان مناخها معتدل جداً وليس بها حميات مطلقاً .

احتجاج

وفى يوم ٧ فبراير سنة ١٩٢٢ قرر الرئيس وصحبه ارسال الخطاب الآتى الى السلطات : ــ عن طريق الكابتن ايستيل :

حضرة المحترم الكابتن ايستيل

بمناسبة ما أصاب الاستاذ مكرم من الحمى التي لا يزال بسببها في المستشفي ، وفتح الله بركات باشا من الرمد ومرض الاسنان ، وسينوت بك حنا من الالتهاب الجلدي ، وبمناسبة خبر تسفيرنا الى جزائر سيشل نرجو التكرم بلفت جهة الاختصاص الى ما يأتى : ــ ان كل واحد منا مصاب ببعض الامراض كرض البول السكري والزلال والمعدة والامعاء والبواسير ، والكبد والعيون والاسنان ، والاقامة فى البلاد التى تشتد الحرارة بها مضرة بنا ، ويكون الضرر أشد ، اذا لم يكن مع ذلك من الاطباء الاختصاصيين والادوية ، والعقاقير الطبية ما يلزم لمداواة هذه الامراض المختلفة وتخفيف أضرارها ، ويظهر أن الحرارة تشتد في عدن زمن الصيف لدرجة لا يمكن لامثالنا المرضى تحملها ، كما يظهر من موقع جزائر سيشل الجغرافي ، ومن قلة عدد سكانها ، ان جوها ايضاً لا يوافق صحتنا ، ولا تتوفر فيها تلك الاحتياجات الطبية لهذا نرجو أن يصير نقلنا الى جهة لا يكون في الاقامة بها خطر على صحتنا ، وأن يحصل ذلك بطريق السرعة ، خشية أن تفتك الامراض بنا

وتفضلوا بقبول فائق احترامات

الامضاءات . . . .

وقد كان الاستاذ مكرم والنحاس بك وقت كتابة ذلك الخطاب بالاسبتاليه ؛ لذلك أرسل الرئيس وصحبه الخطاب اليهما مع الكابتن ايستيل للتوقيع عليه وامضائه ثم سلم اليه لتقديمه الى السلطات المختصة

الاستعداد للسفر

مضى بعد ذلك نحو الاسبوعين تقريباً حتى وصل الرد وهو يخبرنا أن جو سيشل جيد جداً ، وأن بها طبيب ماهر واثنين مساعدين له ، وانهم متأكدون من تحسن صحة الجميع عند وجودهم بها وان الوفيات بها قليلة جداً ، فكانت تلك صدمة عنيفة لان الرئيس وصحبه كانوا يعلقون أهمية عظمى على ذلك الخطاب ، ولكن مع شدتها ، لم تفل العزائم ، ولم تؤثر في تلك النفوس التى أصبحت متدرعة بدرع من الرزايا

فكنت اذا أصابني سهام تكسرت النصال على النصال

وجاء الكابتن ايستيل يخبرنا أن الباخرة التي ستبحر بنا الى سيشل تصل عدن في الثامن والعشرين من فبراير سنة ١٩٢٢ ولكن جاء ذلك اليوم وعلمنا أنها تأخرت عن ميعادها وستصل حوالى الاسبوع الاول من شهر مارس فكثنا ننتظر ولم يبق من الامل عند البعض الا قليلا جدا ، ولكن كان هناك منا من يثق بأمكان تغيير الحال فى لحظة

الرئيس يسافر وحده

وجاء ذلك اليوم المشهود أول مارس سنة ١٩٢٢ ففي الساعة ٨ والدقيقة ٣٠ من صباح ذلك اليوم حضر الكابتن ايستيل يصحبه سكرتير الحاكم ، وكان الرئيس وصحبه يتناولون طعام الفطور فحيا وجلس بقرب الرئيس وطلب منه أن يكون على استعداد للسفر هو وتابعه فقط الى سيشل ، ويوجد مركب حربي ينتظر بالميناء للابحار بنا اليوم

عرا الجميع دهشة يمازجها الاستياء والغيظ الشديد لذلك النبأ المزعج ، نعم اننا كنا متوقعين ذلك اليوم ولكن ليس فقط للرئيس وتابعه بل للجميع :ـ وكنا قابلنا تلك الصدمة العنيفة (خبر نقلنا الى سيشل) بصبر وثبات ، نظراً لوجودنا جميعاً معا ، وقد كان ذلك

الاجتماع هو المشجع على مقاومة النفي وآلامه ، ولكن لما جاءنا ذلك النبأ المؤلم ، انزعجت الخواطر وثار الشعور وتيقظ الهاجس في القلوب ، ما المعنى لارسال الرئيس وحده ؟ وقد جاء نص تلغراف روتير بنفي الجميع الى سيشل؟ هذا سؤال القوه على سكرتير الحاكم ، ولم يترددوا في المعارضة في ذهابه وحيداً ، لا يرافقه الا تابعه فقط ، وأبدوا رغبتهم الشديدة في اصطحابه متسائلين عما يمنع من ذلك ، فكان جوابه أن المركب ليس بها محلات تسعهم ، وعلى ما يعتقد أنهم سوف يتبعونه في مركب اخرى قريباً ، وأضاف بأنها مع ذلك أوامر صدرت اليه وهو يقوم بتنفيذها . طلبوا منه أن يفاوض الحاكم في أمر اصطحابهم اياه ، أو على الاقل التصريح لبعضهم بذلك ، فذهب ثم عاد وقال ان الحاكم تأسف لعدم امكانه التصريح .. ولما ذهبت كل مجهوداتهم ومعارضاتهم واحتجاجاتهم على ذلك الامر عبثاً سلموا للقدر واستسلموا للأسى

ساعة الفراق

اهتممت بحزم أمتعتنا وجاءني الرئيس وأنا على وشك الانتهاء فقال سأذهب الى سيشل يا عبد الله فهل تذهب معي أم تبقى معهم لربما يعودون الى مصر ، فاجبته بأن الشعور الذى دفعني للتطوع من مصر لخدمته قد ازداد قوة وليس هناك ما يمنعني قط من مرافقته حتي الى أقصى المعمور ، ورددت قول القائل

ولا خير فيمن لا يوطن نفسه ... على نائبات الدهر حين تنوب

فنظر الي مليا ، ثم أومأ برأسه علامة الرضا والارتياح وسمعته يردد نفس القول :

جاءت ساعة الفراق فاستأذن أصحاب الرئيس الكابتن ايستيل في مرافقة معاليه حتي اللنش فصرح لهم ، وقد صار الرئيس بينهم وعلى

وجهه علائم الثبات وقوة الارادة ، بينما صحبه استسلموا للحزن العميق يحاولون حبس الدموع فلا يستطيعون الى ذلك سبيلا ، وقد أراد معاليه تخفيف الحزن عنهم وتلطيف الألم ، فاخذ يتكلم مظهراً عدم الاكتراث بتلك الساعة الرهيبة ساعة الوداع ، وكنت أسير خلفهم فتأخر عاطف بك بركات قليلا وهمس فى اذنى أنه عند وصولنا الى سيشل اكتب اليه عن كل ما يصادفنا من الحوادث والاشياء وعلى الاخص صحة الرئيس

فسألته والى أين أكتب ؟ فقال انك تعرف عنواني بمصر على منزلى أو على بيت الأمة ، وهنا يجب أن انبه أن الاعتقاد كان عاما عند الجميع — الرئيس وصحبه وأنا — أن معنى ارسال الرئيس وحده الى سيشل هو أن اخوانه سيؤخذون الى مصر ، وذلك هو الوجه الذى أمكننا به تفسير سفر الرئيس وتابعه فقط الى سيشل ، فوعدته بذلك وقلت سوف أفعل ما يستطيعه انسان ، ولما أن قربنا من اللنش همهمت الرئيس يردد قول الشاعر

بذا قضت الايام ما بين أهلها — فآونة قرب وآونة بعد

ويرد ايضاً :

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما — يظنان كل الظن ألا تلاقيا

فأمن الجميع على قوله ، بصوت حشرجه الأسى وأبحه النحيب وعند وصولنا مد الرئيس يده مصافحا فقبلوا جميعاً يديه وقبلهم وفي تلك اللحظة انهمرت العبرات من المآقي ، وكان الاستاذ مكرم اكثرهم بكاء ، ولما أن عانق الرئيس تصاعدت زفراته وتتابعت شهقاته بحرقة أشعلت النار في الصدور ، ورأيت الرئيس يلمع فى عينيه بريق يعرفه كل من عاشره ، بريق قوى يضيء عند ما يكون موجها ارادته لشيء فعلمت أنه يدافع الدموع جهد استطاعته

ودعتهم بدوري مصافحا ، وشكروني كثيراً على ما أبديه من مظاهر

الثبات والاقدام والجرأة ، ذاكرين لى ما سيكون لى من فخار وذكرى بذلك العمل الذى يحسدونني عليه ، ويود كل منهم لو أن يكون هو عبدالله تابع الرئيس .

جاس الرئيس باللنش وجلست بأزائه وعلى يساري الكابتن ايستيل الذى لزم الصمت طول مدة وجودنا باللنش احتراما لحزننا وألمنا ، وكان ظهر الرئيس لصحبه الذين ظلوا وقوفا حيث تركناهم على حافة الماء يتبعوننا بأعين مغرورقة بالدموع ويلوحون الينا بمناديل قبضت عليها أصابعهم المرتعشة فنبهت الرئيس اليهم فبحث بيد مضطربة عن منديله وأخذ يلوح لهم بيده ، فقلت انهم يبكون كثيراً لفراق معاليك ، فقال نعم وانه لمما يحزنني ولكني كنت أحب لو أن يتشددوا أمام القوم فى تلك الساعة الرهيبة ، ثم صمت برهة وقال ولكن الامر فوق طاقتهم ، وعاد الى الصمت ثانية فاحببت أن احاول توجيه التفاته لغير تلك الوجهة وربما أني شعرت وقتئذ بان صمتى انا أيضاً قد لا يكون جميل الوقع في نفسه فى تلك الساعة ، فاخذت احدث معاليه مشيراً الي ما نمر به من القوارب الجميلة ومخازن الفحم العظيمة ولحظ منى ذلك فاخذ يجاوبني فيما رميت اليه

وصلنا بعد نصف ساعة الي مركب حربي صغير ولما رأيت اللنش يأخذ وجهته اليه نظرت الي مقدمته فوجدت مكتوبا عليه بحروف نحاسية بارزة . هـ . م . س . كلياتس

في الاقيانوس الهندى

كلياتس مدمرة حربية صغيرة حمولتها ٩٠٠ طن ويندر جداً من يسافر فى البحار على باخرة من مثل حمولتها ، القليلة ، بل أن هناك من لا يسافر الا فى بواخر لا تقل حمولتها عن عشرة آلاف طن وذلك لان البواخر ذات الحمولة الصغيرة تسبب تعباً شديداً للمسافر ، اذ تلعب

بها الامواج لعباً ، لا يستقر معه الطعام أو الشراب في امعائه سوى دقائق معدودات ، نظراً للدوار الذي يصيبه وأيضاً لان البواخر الصغيرة تضيق بها الغرف والامكنة الى حد أن لا يجد المسافر بها راحة قط هذا اذا كانت المركب من المراكب المعدة للركاب ، ولكن ماذا يكون الامر عند ما تكون المركب صغيرة وحربية ؛ لا شك أنه يتضاعف التعب وتقل الراحة الى حد مزعج ، ولقد كان يعييني البحث عن مكان أجلس فيه مطمئنا ، وكثيراً ما قضيت بها الساعات الطوال واقفاً على قدمي كأني من جنود البحارة ، قابضاً على أمعائي بيدي خوف أن أقذف بها من فمي من شدة الدوار الذي كان يعتريني

تذكر الناس أن الجرائد المصرية نشرت في ديسمبر سنة ١٩٢١ أن باخرتين حربيتين استدعتهما السلطة العسكرية في مصر من مالطه على جناح السرعة ، وكان ذلك قبل القاء القبض على معالى زغلول باشا وصحبه .. لقد كانت احدي تينك الباخرتين هي كليماتس هذه ، وقد أنزلت بمصر عدداً من الجنود الانجليزية وكمية من الذخيرة جاءت بها من مالطه حسب اشارة السلطة العسكرية الانجليزية بمصر وقضت بعد ذلك المدة ما بين ديسمبر سنة ١٩٢١ ومارس سنة ١٩٢٢ في الطواف بالبحر الاحمر تتفقد موانيه وتراقب القوارب التي تزاول مهنة تهريب الرقيق والاسلحة ، من والي البلاد الواقعة على ذلك البحر كما علمت من بحارتها ، الذين كانوا جميعاً من الانجليز

لم يكن بها من القمرات الا عدد قليل جداً لا يكفي لايواء نصف ضباط الباخرة الذين كان ينام معظمهم على سطح الباخرة ، أما البحارة والخدم فكانوا ينامون داخل قطعة من القماش المتين على شكل قارب تربط من طرفيها بحبل في المواسير الكثيرة المنتشرة في طول الباخرة

وعرضها ، وتترك متمرجحة ذات اليمين وذات اليسار طول الليل ، ولا بأس بها للمتعود عليها

عند ما صعدنا الى الباخرة صحبة الكابتن ايستيل وجدنا قبطانها وبعض ضباطها وقوفاً على آخر السلم لاستقبال الرئيس فتصافحوا ، ورأيت ضابطا صغيرا قدمه القبطان الى الرئيس قائلا أنه يعرف شيئا من الفرنسية التي يتكلمها معاليه ، ولذلك عين للقيام بخدمته وتنفيذ ما يأمر به ،

عرفت ذلك فتركت الرئيس يذهب صحبة القبطان وذلك الضابط الصغير الى قاعة الجلوس وذهبت لرؤية المكان الذى اعدوه لمعاليه ، فنزلت في سلم ضيق انتهى آخره الى طريق ضيق طويل ووجدت امامى غرفة عرفت لأول وهلة انها لم تك قط غرفة نوم وانما كانت تستعمل كغرفة جلوس ، وهى قليلة الاتساع ، فى جانب منها منضدة كبيرة ومقعد طويل من الجلد ، وكرسيان ، وليس بها شىء من معدات النوم ، فسألت الذى قادني اليها عن السرير والفراش الذي سينام علية لرئيس فاجابنى بأنهم سيحضرون ما يلزم للنوم بعد قليل ، ومن ثم احضروا سريرا بسيطا ومنضدة صغيرة ، استطعت أن اجعلها مثل لافومانو ، ثم بذلت جهدا فى جعل الغرفة صالحة بقدر الامكان ، وطلبت بعد ذلك رؤية الحمام ، فلم أجد شيئا سوى دش على ظهر الباخرة فى العراء ، وهو الذى يغتسل فيه الضباط فأخبرتهم أنه لايمكن للرئيس مطلقا أن يغتسل فى مثل ذلك المكان ، فاحضروا حوضا صغيرا لايكفى اتساعه لجلوس طفل ، تاركين لنا الخيار بين الاثنين ، ! !

ولم يستعمل الرئيس شيئا منها لانه كان يفضل التدليك بالسكاونيا على الاستحمام بهذا الشكل ،

ذهبت لرؤية المكان المعد لى ، فأشار الضابط الى مكان خال من كل شيء على سطح الباخرة ، فوق غرفة الرئيس ، وبالقرب منه آلة لعمل الثلج تدار بالنشادر فتنبعث منها رائحته القوية التي توقظ من صرعته الخمر فكيف بالنائم ؟ ! ، وقال سنضع لك هنا سريرا ونحوطه بقماش (سيصير على شكل غرفة ، ولما رأيت أن القماش اسود حالكا ، من الخيش المغموز فى الزفت كي يمنع تسرب الماء) ابديت نفوري من النوم فى غرفة سوداء ، فأجابني بجفاء ليس لدينا غيره ، واذا لم يرضك فيمكنك النوم بدونه (أى فى العراء) ؟!

تركت ذلك الي حين ، وصعدت لرؤية الرئيس فوجدته جالسا يتحادث مع الضابط الصغير بالفرنسية التي لم يك ذلك الضابط يفهم منها الا القليل فأنبأت الرئيس بما تم بخصوص غرفته ، ولما حان موعد الغداء الذى كانوا يتناولونه على ظهر الباخرة فى قاعة الجلوس اصطحبه الضابط الصغير ، وجلس بازائه على مائدة واحدة ، فبحثت عن رئيس خدم المائدة وسألته عما يقدمونه عادة من الاطعمة . وأفهمته أن يقدم للرئيس ما اعرف أنه يأكله وأن يتجنب تقديم ما اعهده لا يميل اليه ، فقدم له شيئا من السمك واللحم الضأن ، و بعض البطاطس المطحون ، وعرفته أنه لا يأكل الحلوى : ولا يتناول شيئا من السكر على الشاي الذى يكره أن يخلط عليه لبن العلب المحفوظ وهو الذى تحمله البواخر عادة ، وكنت اهيء القهوة لمعاليه بنفسي واقدمها له خالية من السكر كذلك ،

الاستاذ مكرم — يسافر مع الرئيس

وبعد الانتهاء من تناول طعام الغداء هيأت لمعاليه ، كرسيا طويلا (شازلونج) وضعت عليه وسادتين صغيرتين ، و بقربه على مائدة صغيرة جزء من كتاب مجاني الادب وذهبت لتهيأة فنجان من القهوة المصرية

لله ، ولما عدت وجدته قابضا على الكتاب بيديه وعيناه شاخصتان الى الامام ، وعلى وجهه ملامح التفكير العميق فوضعت القهوة بقربه وقلت عسى أن تكون معاليكم استطيبتم طعام الباخرة ؟ فلم يرد علي جوابا ، ولكنه قال بعد برهة ، « لا افهم معنى سفري وحدي !! وفجأة كذلك !! ولقد سألت القبطان عن سبب عدم التصريح لرفقائي باصطحابي فأجابني بأنه ليس هناك محلات تسعهم بالباخرة ، » فومض لي اذ ذاك بريق من نور الامل عند سماعي ذلك ، وقلت له أن في غرفة معاليكم مقعدا مستطيلا من الجلد يمكن تهيئته وجعله صالحا للرقاد ، فاذا كان المانع من حضور أحد منهم هو ما يقولون فلنطلب منهم معاليك التصريح لواحد منهم باصطحابك وها هو الاستاذ مكرم الذي يقدسك ويبكي دما لفراقك ، فاستحسن معاليه ذلك ، واستصوب هذا الرأى ، وابرقت اسرته بنور الامل ، وعرفني بأنه سوف يطلب منهم ذلك ،

وحوالى الساعة الرابعة والنصف اخبرني معاليه ، أنه تحادث مع القبطان الذي وعده برفع طلبه الى الحاكم ، وعند المساء علمنا أن (الحاكم) أرسل اشارة تلغرافية الى السلطات المختصة بذلك الخصوص وجاءه الرد بالتصريح لاحد اصحاب الرئيس بمرافقته فطلب الاستاذ مكرم ،

وسررنا بذلك أشد سرور ، وبتنا تلك الليلة والقلب مفعم بالامل مملوء بالسرور وكلنا شوق الى لقاء الغد ،

جاء الاستاذ مكرم ثاني يوم فكان سروري بحضوره لايقل عن سرور الرئيس به لانى كنت اخشي تأثير الوحدة عليه كثيرا ، وجاء معه باقي اصحاب الرئيس الذين طلبوا ذلك لرؤيته ووداعه قبل الرحيل ،

فقابلهم معاليه على سلم الباخرة ووجوه الجميع طافحة بنور الامل ، وقبلوا يديه وصافحوني ، ثم ذهبوا جميعا الى غرفــة المائدة ، فجلسوا حول منضدة يتحدثون نحو ساعة من الزمن ، وعند انصرافهم ناول كل منهم ، الرئيس والاستاذ مكرم وأنا وريقة صغيرة كتب علي أحد وجهيها اسم اخــدمه ، وعلى الوجه الآخر لا اله الا الله ، محمد رسول الله ،

ثم انصرفوا بعد ان ودعونا وداعا مؤثرا .

من عدن — والى أين ....؟؟

وما اشبه الليلة بالبارحة ، اذ قال المرحوم محمود سامي باشا البارودى ، في مثل هذا الموقف وهم يأخذونه الى منفاه فى جزيرة سيلان : —

ولمــا وقفنا للوداع واسبلت ... مدامعنا فوق الترائب كالمزن
اهبت بصبرى أن يعود فيزني ... وناديت حلمى أن يثوب فلم يغن
فكم مهجة من زفرة الوجد في لظى ... وكم مقلة من غزرة الدمع في دجن

***

جلس الرئيس والاستاذ مكرم يتحادثان ، وبدأ البحارة الهنود برفع مراسى المركب ، وأديرت الالات ، وعند الساعة الرابعة تماما ، تحركت الباخرة تاركة عدن وتركنا بها قلوبا روعها الاسي لفراقنا ، ثم اخذت وجهتها في خليج عدن وما اختفت عدن عن ابصارنا حتى اهتممت والاستاذ مكرم بمراقبة وجهة الباخرة ، لانه كان لدينا شعور بأنه ربمــا كانت وجهتنا الى الغرب (مصر أو اوروبا) وقد ظللنا على هذا الاعتقاد حتى قربنا من خط الاستواء ورأينا البحارة يستعدون لعمل احتفــال بالمرور عليه ، وكان ذلك في اليوم الرابع من السياحة ، فسلمنا لانفسنا بأننا ذاهبون الى سيشل ، وكنا ونحن بخليج عدن والمحيط الهندي في شك

من وجهتنا رغم ملاحظتنا بأننا نسير نحو الشرق ،

***

الطعام على ظهر الباخرة ، كنا نتناول الطعام اربع مرات يوميا ، ففى الصباح كانوا يقدمون لنا شيئا من البورد والبيض والسمك والشاى واللبن — وللغذاء شيئاً من اللحم المثلج الضأن أو البقري والسمك ، والخضروات التي كان اغلبها من النوع المحفوظ بالعلب ، وقليلا من الحلوي التي لا يجيدون صنعها و بعض الفاكهة وفنجان من القهوة أو الشاى ، عقب الأكل ، وهكذا كان العشاء ، فقط يزيدون عليه شيئا من الحساء ، ومع ذلك فكثيرا جدا ما كان الرئيس يترك ذلك الطعام و يعمد الي شيء من السردين أو الزيتون لسببين ، أولا أن نفسه كانت تعاف كل محفوظات العلب من خضروات أو لحوم أو سمك أو فاكهة ، وهذا ما تحمله البواخر الحربية عادة ، ثانيا لانه كان يخشى المأكولات الدسمة ، لعدم استقرارها طويلا فى امعائه من الدوار الذى اعياه واعيانا التغلب عليه ، ولم يك يتناول معاليه شيئاً من المشروبات على المائدة ،

كان من صغر حجم الباخرة وخفتها أن لعبت بها الانواء فصارت كريشة في مهب الرياح لا تستقر على حال ولا يستقر معها طعام فى بطوننا ،

ولما كان الرئيس اشدنا تأثرا من دوار البحر كانت مدة سياحتنا من عدن الى سيشل من أمر الاوقات التي قضيناها فى المنفى ، فكان يقضى غالب أوقاته مضطجعا علي سرير صغير من القماش، اضعه له علي سطح السفينة الاعلى ، لان الانسان كلما ارتفع عن الماء كلما كان تأثير الدوار عليه أقل وطأة ، و بقرب ذلك السرير يجلس الاستاذ مكرم على كرسى صغير محاولا تسلية الرئيس وتخفيف الألم عنه ،

صحة الرئيس فى السفينة

لقد كان من مرض معاليه مرض لنا ، فقضينا تلك المدة فى شقاء مستمر. شيخ عان ، مريض . لا تكاد البقية الباقية من قواه تحمل جسمه لولا ما يعضدها من قوة الروح ، من قوة الارادة الحديدية ، من قوة هذه النفس الكبيرة ، على باخرة حربية صغيرة ، تدار بالفحم فيغطى دخانه سطحها وحواجزها بهباب قذر ، وطبيب بتلك الباخرة كل همه أن يتصفح أو زاق رواية طول يومه ، ولا يتكلف السؤال عن ذلك الشيخ المريض الا بشق النفس ، ثم هو لا يعطيه ما يصلح ولا ما ينفع ، لا يهنأ بلقمة ولا جرعة ولا جلسة ولا سنة من النوم ينزع من أحضان مصر ، ثم من أحضان اخوانه وصحبه ويرسل الى منفى سحيق لا يصحبه الا خادمه ، وأحد أصحابه ، بعد الحاح شديد ، على باخرة صغيرة لم تصنع الا لحمل المدافع والجنود لا لنقل الركاب ، ثم ذلك جعلنى والاستاذ مكرم ننظر الى المستقبل بعين الحذر والوجل لا على أنفسنا بل على الرئيس ، ودفع الاستاذ مكرم الى أن يهمس فى اذنى بوجوب السهر على صحته غير معتمدين الا على الله وعلى أنفسنا .

لقد دنا منى مرة ،والرئيس فى سنة من النوم، وأنا واقف عند قدميه صامت حزين ، دنا منى ورأيت دمعة تترقرق فى عينيه ووجهه أحمر قانيا ثم قال لى .

يخامرني الشك يا عبد الله فى أنهم انما يتصرفون هذا التصرف المريب ليؤثروا على صحة الباشا ، فيجب أن لا تذوق أعيننا الرقاد ، وانهم ان حاولوا تفريق منكما فسوف لا يتم لهم ذلك ولو عمدوا للقوة وأنا حي .!

حاولت الاجابة بما يجيش في صدري فغصصت بكلماتي بما تملكني

من عوامل الاعجاب المشوبة بالالم ولم أتمكن الا أن أقول له

لو كان لى الف روح غير روحى لبذلتها جميعها فداء لكما .

ثم استتبع حديثه فقال : — نحن لا نحافظ على محمد باشا لاجل محمد باشا فقط ، وانما لاجل مصر أيضاً لاجل القوة الكامنة فيه ، لاجل ينبوع الوطنية المقدس ، فاذا استطاعوا أن ينالوا منه شيئاً ، لا قدر الله ، امكنهم أن ينالوا من مصر شيئاً كثيرا جدا .

احتفال فوق خط الاستواء

تحسنت صحة الرئيس قليلا في اليوم الرابع فجلس على سطح الباخرة مع الاستاذ مكرم ، واذا بنا نرى حركة فى الباخرة غير عادية والبحارة فى قعود وقيام وجيئة وذهاب وعلى وجوههم أثر السرور ، فتحريت منهم عن سبب ذلك فعلمت انهم يستعدون لاقامة احتفال كرنفالى لمناسبة مرورهم على خط الاستواء كعادة البواخر الانجليزية عند ما تجتازنصف الدنيا .

وما مضت ساعة من الزمن حتى رأيت موكباً يقترب الينا وفى مقدمته اثنان من البحارة ، تزيى أحدهما بزى نبتون آله البحر فوضع شعرا اشعث مستعارا ، ولحية مهلهلة حمراء ولطخ وجهه بلون أحمر كلون عباءته الواسعة المترامية الاطراف وقد وضع على رأسه تاجاً من البرنز وحمل بيده عصا طويلة يدب عليها بعظمة وتؤدة ، وفى رأسها ثلاث شعب كالحراب وقد تأبط زوجه (وهى بحار أيضاً) التي تزيت بمثل لباسه ، غير ان هذا أطول ، وأرسلت شعرها الاحمر المستعار الى ما تحت اردانها ، و بدت من بين ثنايا ذلك الفستان من ساقها وصدرها ، وخلفهما الحاشية (من البحارة أيضاً) يلبسون شعورا تدارى سوءاتهم فقط ، وقد لطخوا وجوههم برماد الفحم ، وهم يرقصون رقصات مضحكة و يأتون بحركات

من وجوههم تضحك الثكلى ...

تقدم الملك والملكة ، واقترب القبطان (بلباسه العادى) من الرئيس الذي وقف لهم مبتسما ، وعرفه بأن هذا هو السيد لبثون آله البحر وزوجه وحاشيته وهنا تقدم الملك ، (وهو كاتب الباخرة وكان شابا ظريفا) الى الرئيس وحنى رأسه قليلا باحترام وتؤدة مادا يد جلالته الى الرئيس مصافحا ، ثم أخذ يتكلم خافضا رأسه تارة وشامخا بأنفه أخري فقال .

« انه لما يحزنني أن أري شيخا وقورا مثلك يقاد مرغما الى بلاد بعيدة نائية ، وأؤمل من كل قلبي أن أراك عائدا عن قريب الى وطنك الذى تحبه . » فتولى الاستاذ مكرم ترجمة ماقاله « جلالة الملك » للرئيس وشكره هذا بكلمتين بالانجليزية فحنى الملك رأسه ومر من أمامنا تتبعه حاشيته ودعانا القبطان لرؤية حفلة التعميد .

وتبعناهم بعد قليل الى مقدم السفينة فوجدناهم أعدوا حوضا كبيرا من القماش (الووتر بروف) وملئوه بالماء وأقاموا قرب حافته عرشا من الخشب وضعوا عليه بعض الفراء ونثروا بعض الاصداف حوله ، وقد جلس عليه الملك وعن يساره الملكة ، مادا ذراعه بعصاه الطويلة مركزا اياها على أسفل العرش .

ووقف على حافة الحوض اثنان من جنوده أحدهما يحمل موسى كبيرة من الخشب والآخر يحمل فرشة عظيمة وامامه جردل ملآن بسائل أبيض وأمامهما كرسى ، وتقدم أحد البحارة الى الحلاقين فاجلساه علي الكرسى وغمس حامل الفرشه فرشته في ذلك السائل الابيض ثم مر بها مرورا مزعجاً على وجهه (الزبون) وقبض حامل الموسي علي رقبته بذراع قوية وتصنع انه يحلق له وبسرعة يدفعه في صدره وبينما يأخذ زميله برجلي

الزبون الى أعلا فيلقياه على أم رأسه فى الحوض المملوء بالماء الى حيث ينتظره ستة من جنود الملك نبتون يغمسون رأسه فى الماء كلما حاول رفع عدة مرات ثم يتركونه يصعد من الجهة الاخري ويتلقفون الآخر ليمثلوا به كما مثلوا بسابقه وهكذا ، فترتفع لذلك الاصوات بالضحك والسرور وترن صيحات الطرب والاعجاب، واستمروا كذلك حتى جاء دور قبطان الباخرة فمثلوا به أنكل تمثيل وقذفوا به قذفة شديدة فى الماء فنزل يهوى وكان لذلك المنظر على الاخص هزة سرور وطرب حقيقى على ما ارجح فى قلوب بعض الضباط والبحارة..

ان نصف الناس أعداء لمن ولي الاحكام هذا ان عدل ..

وقد أغرام خبيث منهم فحاولوا أن يمثلوا معي ذلك الدور فعارضت خاصروا ، فاحتججت فلم يعبأوا ، ولما رأيت ذلك ليس بمجد نفعا هربت منهم وتحصنت قرب الرئيس فجاسست على مرأى منه ، ولم ينقذني من أولئك الشياطين غير ذلك .

يحسن بي أن أنبه الي الجو عند خط الاستواء . فأقول ان الحرارة هناك مما يستحيل على الانسان معها أن يضع على نفسه ثيابه كاملة . وقد رأيت البحارة وقد تجرد نصفهم الاعلا من الثياب والعرق يتصبب من أجسامهم وجباههم وأخبرنى بعضهم أن من البحارة من يموت من شدة الحر فى تلك المنطقة الجهنمية .. وقد ظللنا طول يومنا ونصف ليلتنا على سطح السفينة الاعلا . ولم يضع الرئيس عليه من الثياب سوى البيجامه وكذلك كان طول مدة السفر حتى ماقبل وصولنا الى جزائر سيشل .

يكثر في جنوب البحر الاحمر والمحيط الهندي نوع من السمك أسود اللون يبلغ متوسط حجمه حجم ولد فى العاشرة . ويسبح على سطح الماء

جماعات جماعات ويتبع السفن كثير الالتهام لما تقذفه من فضلات الطعام والزيوت والشحم وغير ذلك

وقد علمت من البحارة أن هذا النوع من السمك لا يتوانى في تمزيق الآدمي والتهامه اذا أوقعه سوء حظه في الماء ، ويعرفونه بقفزاته في الماء وهو يهوى الشمس كثيراً ويطلقون عليه اسم «الشارك»

وفي جنوب خط الاستواء يكثر السمك الطيار وهو صغير فى حجم البسارية النيلية . ولكنه ذو أجنحة طويلة تمكنه من الطيران على ارتفاع نصف متر من سطح الماء لمساحة لا تزيد عن المئتى متر تقريباً . وهو يحب النور أم يكرهه لا أدري . وانما رأيت البحارة ينصبون له شباكا ، على جانب السفينة ويضعون بقربها مصباحا ، كهربائيا قويا . و يتركونه طول الليل وعند الصباح يجرون الشبكة اليهم فيجدون بها عدداً كثيراً منه ولست أدري سبب اندفاعه نحو النور . ألشراسته وحبه للفتك بذلك الشيء المضيء ، أم انه يهوى النور فيقصده ؟ .

***

أصبحنا يوم ٩ مارس وقد هدأت الامواج فاعتدل سير السفينة . ونظرت فاذا البحر كمرآة لا أثر للتموجات به ، والماء أزرق صاف يحاكي الزيت فى هدوئه وسكونه ، فحمدنا الله على الخلاص من الدوار الذى كانت تسببه الانواء والامواج التي كانت تلعب بالسفينة . وارتدي الرئيس بذلة لاول مرة منذ ركوبنا تلك السفينة المشئومة . ثم جلس مع الاستاذ مكرم على سطحها الاعلى . ومررنا حوالى الساعة العاشرة على جزائر صغيرة جدا بدت لنا من بعد قفراء فظنناها وجهتنا وسألنا فعلمنا بنفى ذلك ، وان اسمها جزائر سنت دنيس .

سيشل

وفى الساعة الثانية عشرة والنصف بدت لنا جزر سيشل وظهرت للعيان كقباب خضراء فى وسط ذلك الماء الهادىء الساكن . وهدأت السفينة سيرها جدا ، وأخذت تمر ببطء بين الجزر الصغيرة قاصدة العاصمة (ماهى)؛ ثم رست السفينة الساعة الاولى تماما أمامها واستطعنا ان نرى جليا أشجار جوز الهند . وأكواخ الجزيرة ذات السقوف الحمراء والبيضاء ، وبعد برهة ذهب معالى الرئيس والاستاذ مكرم الى قاعة المائدة لتناول الغداء

ورأيت الباخرة قد وقف سيرها تماما وألقت مراسيها ثم اقتربت اليها من جهة الشاطىء عدة قوارب والتصقت بها ورأيت فى هذه القوارب وكانت تسير بالمجداف قوما يميل بعضهم الى السواد الحالك ، والبعض تضرب بشرتهم الى السمرة كلون المصريين ، وجميعهم يرتدون ثيابا افرنكية بيضاء ، وقبعات عريضة من الخوص . وكانوا يتكلمون بلغة لم أفهم كنهها بادىء الامر ولكن لما ان ألقيت السمع جيدا عرفت فيها الفرنسية مشوبة بكلمات زنجية اللهجة أجهلها ، ويحمل اولئك القوم كثيرا من السلاحف بين صغيرة جدا وكبيرة لا يستطيع حملها الا رجل قوى ، وكثير من مصنوعات أصداف الزحالف وجوز الهند ، وأخذ بعضهم يطيل النظر الي صامتا ، والبعض يحادثني مشيرا الى سلعته ، فتركت ذلك كله ، وذهبت لرؤية الرئيس فوجدت معاليه يحادث أحد الضباط الانجليز ووجهه يتدفق بشرا وليس عليه سوى علائم العزم والثبات ، وطارقت أذنى آية من آيات الوطنية قذف بها الرئيس الى وجه الضابط ونفسه وسمعه ، فتركته بأهتا دهشة واجلالا : قال معاليه

« اعلم أنهم بقدر ما أبعدوني عن أهل بلادى بقدر ما قربوني الى قلوبهم

وان ذكراى ستبقي حية ثابتة بمصر ولن تموت بموتي »

فسمعت ، ووعيت ، وصدقت وآمنت ، ولكني دهشت ؟!

نعم دهشت : فما كان يلوح على وجه الرئيس ألا مايلوح على وجه من يدعى الى حفلة شاى راقصة ، أونزهة على ظهر جواد بين المروج والاحراش لاعلا ثم من يرى منفاه السحيق فى جزيرة صغيرة نائية في آخر المعمور ؟!

عدت الى الوقوف على حاجز الباخرة فرأيت قاربا بخاريا آتيا من نحو الجزيرة يمخر عباب الماء بسرعة ولما ان قرب منا دار دورة فى الماء والتصق في أسفل السلم ، وصعد منه ثلاثة رجال يرتدون ثيابا افرنكية بيضاء وقبعات أوروبية وكلهم بيض الوجوه الا أحدهم فقد لفحته حرارة الشمس فسمرت بشرته قليلا

رأيت أحدهم طويل القامة أبيض اللون نحيل الجسم وهو ذو شارب صغير يضع على عينيه نظارات ذهبية ، وقد علمت فيما بعد أنه سكرتير الحاكم ، والآخر قصير القامة قمحي اللون حليق اللحية والشارب ويدعي المستر جريك مفسود وظيفته نائب عمومي ، ولنا دور طويل مع هـذا الرجل سيأتي ذكره فى حينه ، قابلهم أحد الضباط عند صعودهم من السلم وقادهم الى القبطان الذي كان جالسا مع الرئيس والاستاذ مكرم ، فتصافحوا وبعد أن تبادلوا قليلا من الكلمات جاء البحارة فحملوا أمتعتنا الى اللنش ومن ثم سرنا جميعا اليه ، بعد أن تودعنا من قبطان الباخرة وضباطها ، وشكر الرئيس ذلك الشاب الضابط الذى كان يزعم القبطان ان له المامابالفرنسية

تحرك اللنش بنا وسار يمخر عباب الماء ميمما نحو الشاطيء ورسا بعد نصف ساعة تقريبا أمام لسان بديع ممتد في الماء ، فخرج الرجلان من اللنش الى البر وساعدا الرئيس على الخروج وكذلك الاستاذ مكرم ، وكنت أنا الاخر .

وماصرت خارج اللنش وأدرت بصري فيما حولى مستطلما حتى رأيت أمامنا بيتا صغيرا وقف على سطحه رجل وضع أمامه آلة فتوغرافية وقد أخذ صورة الرئيس والاستاذ مكرم.

رأيت بانتظارنا أربعا من العربات الصغيرة لاتسع العربة غير واحد ويجرها ادمى من أهل البلاد ، ويطلقون عليه اسم الملبوس ، فدعا المستر جريك الرئيس والاستاذ مكرم الى الركوب كل في واحـدة واستقل هو وزميله عربتين اخريين ، وطلبوا منى ان أبقى بالميناء حتى تحضر أمتعتنا وان انتظر عودتهم ، فوقفت أعمل الفكر فى معنى انتظار عودتهم ولماذا يعودون ، ولم لاأتيهم بالامتعة والحقائب عند وصولها ؟ أليست هذه ماهى ، الجزيرة الوحيدة المأهولة فى جميع جزائر سيشل ؟ والى أين نذهب بعد ذلك؟!

وبينا أنا كذلك اذ رايت رجلا حسن البزة يضع نظارات كبيرة سوداء على عينيه ، وهو يحمل الة فتوغرافية كبيرة ، فعرفت فيه الرجل الذي كان واقفا بأعلا المنزل :

قرب مني وحياني بالفرنسية مبتسما ثم أخبرنى أنه لم يمكنه أخذ صورة جلية تامة كما كان يبتغي فسألته بالانجليزية هل يتكلمها فأجابنى بنعم ، ومن ثم أخذنا نتحادث . فعلمت منـه أنه موظف بخزينة ماهى . وانه محب التصوير يقضى فيـه أوقات فراغه . وليس بماهي سوى مصور واحد . فسألته وهل هو ذلك الرجل . فقال لا . وانما هو رجل يابانى طعن في السن وأصبح غـير قادر على مزاولة مهنته كالاول وأقوم الان بمساعدته.

وسألته هل يعرف من نحن؟. فأجابني بأنه يعرف جيدا من هو زغلول باشا ، وقد قرأ كثيرا عنه فى الجرائد الانجليزية ، وعرف من التلغرافات عن عزم الحكومـة الانجليزية على نفيه الى سيشل ، وهكذا أخـذت

القي عليه الاسئلة وهو يعطرني وابلا منها ، فعلمت منه بأنهم يطلعون على جريدة التيمس والديلي ميل التي تأتي لبعض كبار موظفي الحكومة من المشتركين ، وان هناك أيضا تلغرافات سيشل اليومية التي تصدرها الحكومة .

وان عدا هي جريدة يطلق عليها « ريفيو شيشلوا » يقوم بتحريرها رجل من أبناء البلاد يدعى دى بويسون ، وهي تصدر باللغة الفرنسية ، وسيجيء ذكر هذا الرجل فيما بعد كثيرا .

وأخذ يقص على من حديث بلاده ومركزها في المدنية والحضارة وسكانها ولغتهم وعددهم ومزروعاتها ، ومحصولاتها الى غير ذلك مما سيأتي الكلام عليه بعد .

ايل لونج

على مسيرة نصف ساعة من ماهي بالزورق البخارى أو ساعة بالزورق الشراعي ، توجد جزيرة ايل لونج احدى جزر سيشل ، وتبلغ مساحتها نحو الـ ٢٥ ميلا مربعا ، وليس بهذه الجزيرة ديار ولا نافخ نار ، سوى خفير هندي الاصل يدعى تامي ، يعيش مع امرأته و زوجه السوداء البدينة ، له ابنتان وولدان لا يزيد عمر اكبرهم عن العشر سنوات ، وهي ملك الحكومة سيشل يعدونها بعض الاحيان ككورنتينه المسافرين القادمين من الهند والقاصدين ماهي .

وبها بيت صغير محوطة لاشجار الباسقة والنباتات اليانعة التي تنتشر فوقها كثير من الطيور المغردة

ويتكون الطابق الارضي من غرفتين صغيرتين وصالة والطابق الاعلى من أربع غرف محوطها جميعا مشرفية تشرف على البحر وتطل على جزء عظيم من الجزيرة اللاتى بأشجار جوز الهند والنباتات الجميلة الغريبة

ويقضي حاكم جزيرة ماهى أوقاته في الصيف في ذلك البيت المنعزل الهادىء .

لا شك ان القارىء يود معرفة ما دعاني لان اتركه يراني منتظرا رجوع الرئيس والاستاذ مكرم على ذلك اللسان الممتد في البحر من ميناء ماهى ، وانتقل به فجأة الى وصف ايل لونج وذلك البيت المنعزل بها ، خاليه البيان . بعد ساعة ونصف مضت على انتظاري حيث تركني القارىء ، عاد الرئيس والاستاذ مكرم والمستر جريك ورجل من أهالى البلاد حافي القدمين أسمر اللون ، وعرفت منهم ان البيت المعد لنا بماهى ، لم تتم تهيئته بعد لذلك سيأخذوننا الى جزيرة أخرى تدعى ايل لونج للاقامة بها ريثما يتم منزلنا بماهى .

وقد لمحت الاستياء على وجه الرئيس

ثم ركبنا اللنش ثانية ووضعوا أمتعتنا في قارب ربطوه الى اللنش بحبل وسار اللنش يمخر عباب الماء بنا وقد وليت وجهي شطر «ماهى» أمتع الطرف بما تقع عليه عيناى من بديع صنع المصور القدير .

جزيرة برمتها ، لن تقع العين بها الاعلى بساط سندسي بديع وقد انتشرت بين أشجارها الباسقة ونباتاتها الخضراء اكواخها الجميلة بسقوفها الحمراء والبيضاء

وصدحت البلابل والعصافير متجاوبة مرجعة وكان لتلك المناظر في عيني ونغمات تلك الموسيقي فى أذني ، تأثير جعلني كالمأخوذ

فللطير في مهد الاراكة رنة ولِلطل في ثغر الاقاحة ريق

وما زلت ارسل الطرف متنقلا فيا حولى هنا وهناك حتى كادت ماهى تختفي عن العين وأصبحت لا ترينا منها الا شبحها ، حتى تحسرت ان

حركة الالة التي بالزورق أخـذت فى الهبوط فالتفت ورائي واذا نحن جزيرة ايل لونج على مسافة مائة خطوة من الزورق

وقفنا تماما فى الماء ، وجاء خفير الجزيرة وأحد البحارة فحملونا على الاكتاف الى البر بالتتابع ـ الرئيس فالاستاذمكرم فالمستر جريك فأنا ، ثم سرنا بضع مئات من الامتار حتى وصلنا الى المنزل الذي وصفته آنفا فأتوا بكراسى عديدة قدم المستر جريك احدهـا للرئيس فجلس يستريح وجلس الاستاذ مكرم ايضا ، وباشرت أنا نقـل الامتعة والحقائب ثم انسللت داخل المنزل لتفقد ما به ، فكان في الصالة السفلى ، مائدة وبعض الكراسى ودولابان بهما كثـير من ادوت الطعام . وغرفتان خاليتان تقريبا . وفى الطابق الاعلى ثلاث غرف مفروشة فى كل منها سرير ودولاب ولفومانو بسيط والرابعة خالية .

ورأيت على مسافة قصيرة من ذلك البيت كوخين حقيرين احدهما يسكن به خفير الجزيرة بنامي وعائلته والثاني يستعمل كمطبخ وليس به وابور الطبخ ولاشيء سوى مصطبة حقيرة من الطين وقليل من الاوانى القذرة ..

ذكرت أنهم عندما عادوا من عند الحاكم في ماهي أحضروا معهم رجلا من الاهالى . فذلك الرجل هو الطباخ الذى عين لطبخ طعامنا

كان هذا الرجل من اهل البلاد ويدعى كويندا وهو يناهز الخمسين من عمره ذو عينين متسعتين براقتين ، كأهل تلك البلاد ، ووجه أشعث أغبر حافى القدمين . حاد الاظافر . لو اطلعت عليـه لوليت منه فرارا ، لذلك حرصت كثيرا على أن لايري الرئيس المطبخ ، ولا الطباخ وهو يطبخ ، لئلا يضرب عن الاكل صفحا .

عدت الى حيث تركت الرئيس وأخبرته بالعربية اني نظرت البيت

ومحتوياته . والظاهر ان المستر جريك فهم ماقلت لانه مالطي الجنس والاصل والمولد كما سيجيء الكلام عنه فيما بعد فغير موضوع الحديث بسرعة البرق وابتدر الرئيس فالاستاذ مكرم بقوله ضاحكا .

هل تريد أن تذوق شيئا قليلا مما لا تحصل عليه فى مصر أو أوروبا؟

وقبل أن يجيبه الرئيس بلا أو نعم ، نادي خفير الجزيرة تامي وخاطبه ببضع كلمات لم أتمكن من فهمها فذهب وغاب قليلا ثم عاد ومعه بضع وحدات من جوز الهند الجنى وفأس وكوبتين ، فأطاح بالفأس قمة الجوز وسكب ما فيها من الماء ثم قدم الى الرئيس والاستاذ ما بها ، فلم يستمرئاه قليلا ولا كثيرا بل بالعكس لم يظهر الرئيس سوي الاشمئزاز ولكن المستر جريك لم يزده ذلك الا ابتساما فلم يخجل . !

مضى المستر جريك بعد أن وعد بارسال الحوائج التى سيجهزها الطباخ لعشائنا ، وعرف الرئيس بانه سوف يحضر فى الغد ، فأخذنا فى الانتظار وأخذت الساعات تمر ، وبلغت الثامنة مساء ، ولم يجيء أحد من ماهي بالشيء الذي سيطبخه لطعامنا . فقال الرئيس : لا أظن الا انهم ينوون قتلنا جوعا فى هذا المكان السحيق . فعلمت كم يشعر بالجوع . وكذلك الاستاذ مكرم لم يكن أقل من معاليه شكوي .

أما أنا فلم يسكت عصافير معدتى ما قدمته لها من جوز الهند الذي احضره تامي :

وأخيرا قرعزم الرئيس أن أسأل الحارس تامي شيئا يصلح للاكل ولو مما يأكله هو وأولاده . فسألته وعلمت منه أنهم يعيشون على الارز المطبوخ بزيت جوز الهند فقط . ولما ذهب ليحضر قليلا من الارز

الذي عزمت على سلقه في ماء دجاجة خير من زيت جوز الهند ، لاحت مني التفاتة نحو البحر فرأيت عن بعد قاربا ميمما نحونا فناديت تامي وأشرت له على القارب فابرقت أسرته ، وجرى نحو الشاطىء ، فسري عني وحمدت الله واثنيت عليه ، وهرعت بالبشري للرئيس والاستاذ .

وجاءنا القوم بكثير من الدجاج والسمك والخضروات والجبن والزبدة والارز والفاكهة .

وشمر كويندا عن ساعده القذر وبدأ يطبخ ويشوي ويحمر وهيأت المائدة ثم ذهبت لمساعدته ، اذ كان الجوع لمس باسنانه أسفل امعائنا .

وبدأنا الساعة التاسعة في تناول الطعام ، ولم نسهر طويلا بعد ذلك . فأوي الرئيس الى مضجعه وتبعته والاستاذ .

وهكذا انتهى ذلك اليوم بحوادثه الغريبة وأموره المدهشة .

ولا يمكنني أن أقول ان النوم كان متقطعا أو غير هادىء لاننا لم نذق النوم في تلك الليلة قط .

وكيف ننام ؟ في جنوب خط الاستواء . وفي وسط المحيط الهندي . في مكان ناء عن العمران ، وفي جزيرة منفردة حتى عن أهل هذه البلاد منفيين من المنفى . فكيف ننام ؟؟

كل هذا مما يثير الوساوس ويوقظ الهاجس ويوجب الحذر ويدعو الى التفكر والارق

اضطجعت في سريري في غرفة صغيرة تنفذ الى عرفة الرئيس بباب صغير ، تركته مفتوحا ، وتركت عيناي مفتوحتين عليه ، وأمعنت النظر في حالتنا ، فمر بذا كرتي ما قرأته سابقا من قصص روبنسن كروزو وجزيرته ، ورحلات جلفر ، وحكايات السندباد البحري ، وخرافات الف

ليله ، ووقائع الشاطر محمد في جزيرة واق الواق وجبل قاف ، فضحكت ثم ضحكت وشر البلية ما يضحك، كاد الفجر أن يشرق وانتهت الساعة الى الرابعة وساعدنى تعب اليوم والليل على السهاد فانتصرت عليه، وسلمت جفوني للرقاد .

ولكني لم انم كثيرا فاستيقظت على صوت سعال حوالي الساعة السادسة وتطلعت فاذا بالرئيس مستيقظا ولكنه لا يزال بفراشه : فقمت وفتحت الابواب المطلة على البلكون واستقبلت نسيم الصباح العليل ، وعدت وقد استمدت قليلا من قواى فساعدت الرئيس على ارتداء ثيابه و بعد ان تم له ذلك تناول عصاه واخبرني انه سيتنزه على شاطيء الجزيرة امام المنزل ريثما اتمم تهيئة طعام فطوره

ذهبت لايقاظ الاستاذ مكرم فوجدته بين نائم و يقظ فعرفته أن الرئيس قد استيقظ وارتدي ملابسه ثم تركته للنظر فى امر الفطور

وحوالى الساعة التاسعة كان الرئيس والاستاذ يلعبان الورق على منضدة امام البيت . اخذت امشى فى الجزيرة مستطلعا كنهها ، وقد وجدت ابن شامى الكبير وعمره لا يزيد عن العشرة من الاعوام . فدعيته لان يدلنى على الطريق وعبرت له عن رغبتى بكل الوسائل الممكنة حتي فهم اننى اريد السير فى طريق دائرى تنتهى بى حيث ابتدأت

جولة في الجزيرة

فسار امامى واخذنا نصعد مرتفعات آونة وأخرى ننحدر مارين فى طريقنا باشجار ونباتات غريبة لم أعرف منها الا أشجار جوز الهند والقرفة والفانيليا ، ثم عرجنا الى طريق صاعد استطعت في اعلاه رؤية ما حولنا من الجزائر على مسافة بعيدة . وعثرت أثناء جولتي هذه بشجيرة

قطن اخذت منها بضع لوزات اطلعت عليها الرئيس والاستاذ عند عودتي

ولما سألنا تامي عما اذا كانوا يزرعون القطن في سيشل اجاب بالسلب ولكن علمت بعد ذلك انهم شرعوا في زراعته وقتاماً . ولكن الحاجة الى اليد العاملة وقفت حجر عثرة فى هذا السبيل فاهملوه . ولما حدثت الرئيس والاستاذ مكرم عما رأيته فى رحلتى الصغيرة حول الجزيرة من المناظر المبهجة والعجائب المدهشة . والأشجار العجيبة والنباتات الغريبة . اظهر الرئيس رغبته فى عمل تلك السياحة بعد الغداء .

وأخذت في هذه المرة أقودها بنفسي ولكنى صادفت فى ثلث الطريق الحارس تامي فاصطحبناه وسار امامنا . واذ كانت تصادفنا منحدرات أو مرتفعات صعبة كنت تناول يد الرئيس من الامام بينا الاستاذ مكرم يساعده من الخلف على التسلق أو الانحدار

وحدث مالم يكن بالحسبان . وهو أنى عند ما عملت تلك الرحلة فى الصباح كان البحر في دور الجزر فمررت في طريق قريب على الشاطىء ولم أعان الصعود كثيراً ولم أحتج اليه . ولكن لما ذهبت أعيد الكرة مع الرئيس كان البحر فى دور المد وقد غطت المياه تلك الطريق التي مررت به عند الصباح . وتعسر وضع القدم به . لذلك كنا مضطرين أما الى الرجوع القهقرى وذلك مالا سبيل اليه لاننا كنا قطعنا ما يزيد عن نصف الطريق وأما اتباع وتسلق الصخور المرتفعة والانحدار في منحدرات صعبة . وأقل اختلال في توازن الانسان يؤدى بالواحد الى سقطة لا تبقى منه ولا تذر .

فسرنا بكل احتراس الى الامام وما زلنا نبذل الجهد ونمنى النفس بقرب الخلاص وقد تصببنا عرقا : وتسلخت سيقاننا من الشوك الذى كنا نخوض فيه . حتى اجتزنا منطقة الصخور الملساء الخطرة التسلق

وانتهينا الى طريق معتدل قادنا الى البيت سالمين فحمدنا الله على الخلاص. رجعنا وكلنا منهوك القوى فذهب الرئيس توا لتغيير ثيابه المبللة بالعرق. وقد شكا التعب بادىء الامر ولكنه عاد فصرح بان هذه الرحلة افادته كثيراً.

الرئيس وحياته اليومية

كنا بعد ذلك نتفقد معاليه كثيراً فلا نجده فيذهب الاستاذ مكرم من جهة وأنا من جهة أخرى. فنعثر به سائرا حول الجزيرة على شاطىء البحر الرملي. وقد كان معاليه يحب السير على قدميه كثيراً جداً وكان يسير بخطوات شاب بارز الصدر مرتفع القامة ثابت القدم.

وأحيانا كنا نذهب جميعاً فنجلس على شاطىء البحر مفترشين الرمل الناعم النظيف. وكنت أبحث لهم عن ودع يلعبان به السيجه

وفي بعض الليالي كان يجلس الرئيس والاستاذ مكرم. ويبدأ الاستاذ مكرم بالغناء بصوت مطرب خلب ويصغي اليه الرئيس بسرور. وكان يساعده فى ضبط نغمة الالحان أحيانا. فيوقع الرئيس الغناء وينشده الاستاذ مكرم بصوت مطرب للغاية

واحيانا يتناول الرئيس كتابا من الشعر ويتلو بعضا من القصائد بينا نصغي اليه. وكان معاليه يحب الشعر السلس غير المعقد. ويقول « ان الشعر الجيد على ما أرى هو ما يفهمه القارىء والسامع لاول وهلة. أما ذلك الذى يحتاج الى أعمال الفكر في تفهم معناه فليس فى نظرى بشعر جيد ، وكان معاليه والاستاذ مكرم يميلان كثيراً الي شعر محمود سامي باشا البارودي وخاصة ما قاله وهو فى منفاه عن مصر وكانا يتغنيان بها ، وكثيراً ما رددا ابياته بالغناء والترتيل. ومما كان يميل الرئيس الى تكريره من أقواله : ـ

ولي شيمة تابى الدنايا وعزمه ترد لهام الجيش وهو يمور

اذا مرت فالارض التي نحن فوقها مراد لمهري والمعاقل دور
همامة نفس ليس ينفي ركابها رواح على طول المدى وبكور
معودة الا تكف عنانها عن الجد الا ان تتم أمور
لها من وراء الغيب اذن سميعة وعين ترى ما لا يراه بصير
وفيت بما ظن الكرام فراسة بامرى ومثلي بالوفاء جدير
وأصبحت محسود الجلال كأنني على كل نفس فى الزمان أمير
اذا صلت كف الدهر من غلوائه وان قلت غصت بالقلوب صدور

وقوله :

سواي بتحنان الاغاريد يطرب وغيرى باللذات يلهو ويلعب
نفى النوم عن عيني نفس أبية لها بين أطراف الاسنة مطلب

وأيضاً قوله :

خلقت عيوفا لا أرى لابن حرة على يدا أغضى لها حين يغضب
فلست لامر لم يكن متوقعاً ولست على شيء مضى أتعتب

وغيره من قصيدة طويلة : —

فزعت فرجعت الحنين وانما تحنانها شجن من الاشجان
ذكرت مواردها بمصر وأين من ماء بمصر منازل الرومان
(فسقى السماء محلة ومقامة فى مصر كل مرنة مرنان)
حتى تعود الارض بعد ذبولها شتى النماء كثيرة الالوان
فارقتها طلبا لما هو كائن والمرء طوع تقلب الازمان
نقموا على وقد فتكت شجاعتي ان الشجاعة حلية الفتيان
(فليهنأ الدهر الغيور برحلتي عن مصر ولتهدأ صروف زماني)
(فلئن رجعت وسوف ارجع واثقا بالله اعلت الزمان مكاني)
صادقت بعض القوم حتى خانني وحفظت منه مغيبه فرماني

شرف خصصت به واخطأ حاسدى مسماته فهدى به وقلاني

وكثيراً ما ترنم معاليه بالابيات الآتية :

على أنني كانت صدرى حرقة من الوجد لا يقوى على مسها صدر
وكفكفت دمعا لو اسلت شؤونه على الارض ماشك امرؤ أنه بحر
حياء وكبرا ان يقال ترجحت به صبوة أو فل من غربه الهجر
وانى امرؤ لولا العوائق اذعنت لسلطانه البدو المغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سيوفهم لها فى حواشى كل داجية فجر
اذا استل منهم سيد غرب سيفه تزعزعت الافلاك وانهزم الدهر

كما كان يذكر البيت الآتى كثيراً ويترنم به ولا أدرى ان كان للبارودي أيضاً أم لغيره :

وانا اناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين او القبر

مسألة المنزل

وهكذا كانت تمر الاوقات، وتنقضي الساعات وزارنا المستر جريك ثانى يوم وصولنا الى ايل لونج، ولما سأله الرئيس عما جرى في أمر المنزل الذى يعد لنا بماهي أخبره أنه على وشك الانتهاء ووعده بالحضور في اليوم الثانى ليقودنا اليه . وفى الغد انتظرناه على غير جدوى وكذلك لم يحضر أيضاً في اليوم الذى يليه ، وعند حضوره فى اليوم الخامس أظهر الرئيس رغبته الشديدة لرؤية ذلك المنزل ، وصحب هو والاستاذ مكرم المستر جريك وبقيت أنا بالجزيرة وحدى ، وعند عودتهما لمحت علائم الاستياء والغيظ بادية على وجه الرئيس وهو يتكلم بصوت يتهدج بالغضب مع الاستاذ مكرم فقال لا معنى للسكن فى ذلك البيت المنعزل ، هل يكون نفى من المنفى ؟ وعلمت من معاليه أن المنزل الذي يعدونه لاقامتنا فى ماهى منعزل جداً عن العمار ، في جهة تسمى كاسكاد ، ولن يمكن الوصول اليه من الاحياء المأهولة في أقل من ساعة باليوس ومع ذلك فانه غير صحى ،

غرف ضيقة وسقف واطيء ، ومع ذلك فلا يمكن أن ينتهوا من ترميمه وجعله فى حالة نصف مقبولة الا بعد زمن طويل قد يزيد عن الشهر ، فلا يمكننا السكن به ولا يمكننا أيضا أن نعيش في المكان الذى نحن به فى ايل لونج لبعده عن المهار ـ ولاننا علمنا من تلغراف وصل من اصحاب الرئيس بعدن بقرب وصولهم ، وليس بالمنزل الذى نقطن به محلات تسعهم ، وعرفت أن معاليه قال للمستر جريك أنه يستحيل عليه قبول السكن فى مثل ذلك المنزل الذى يعدونه بكسكاد ـ واعتذر المستر جريك بعدم وجود منزل خال غيره وبان أزمة المساكن شديدة في ماهى

لما علمت ذلك دعوت كونيدا وسألته عما اذا كان يعرف بيوتا خالية تصلح لاقامتنا بماهي

فتردد قليلا ثم طلب مني ألا أخبر المستر جريك أن هو صرح لى بشيء ، فوعدته بذلك ، فاخبرنى أن هناك بيتا خاليا هو ملك لضابط فى البحرية ورثه عن ابيه الذى كان يدعى الدكتور بروكس ، وقد جاء الدكتور بروكس منـذ عهد بعيد من بلاده (انجلترا) وربى ثروة عظيمة قبل وفاته ، وان به حديقة غناء وهو يحتوى على ثلاث غرف وصالونا كبيراً ، خلاف عدة غرف اخري بالحديقة ؛ تصلح كمطبخ أو مخزن كما تصلح للخدم أيضاً

فعند سماعي ذلك ذهبت توا الى الرئيس وأخبرته بكل حديث كونيدا ، ودعوته اليه فحدثه بنفسه عما يعرفه ـ ورجا الا يدرى المستر جريك بذلك لئلا يناله منه أذي فشكره الرئيس وصرفه الى عمله

وفى اليوم الثانى حضر المستر جريك أيضاً الي الجزيرة وكان على ميعاد مع الرئيس ليصحبهما لزيارة الحاكم ، وبقيت بالجزيرة في انتظارهما وقد تأخرا كثيراً ومالت الشمس الى المغيب وأخذ القلق يدب دبيبه

في نفسي - فجلست على شاطيء البحر أرقب رجوعهما بفروغ صبر حتي ظهر اللنش فى عرض البحر كنقطة صغيرة وما زال يقترب حتى سري عني برؤيتهما فاستقبلتهما بفرح وسرور وازددت بشرا لما رأيت الابتسام يعلو وجهيهما - وأخبراني أنهما حادثا الحاكم بخصوص البيت المزمع نقلنا اليه فى كاسكاد (في منفى المنفي) ، وانه بعد تردد قليل أجاب بأن لا بأس بالسعي في ايجاد غيره ، فاخبره الرئيس بأنه علم بطريق الصدفة بوجود منزل يدعى منزل بروكس هال لا يسكنه أحد

فتداخل المستر جريك بسرعة وأخبر الرئيس أن البيت المذكور بعيد جداً ويقع خلف الصخرة من الجهة الاخرى

ومن مدهشات المستر جريك هذا أنه يميل (كما وصفه معالى الرئيس) لاخفاء الحقيقة كثيراً ، ولكنه يعود فينسي بعد قليل ما وضعه بدلها ؛ فانهم بعد انصرافهم من عند الحاكم ومرورهم في الشارع العمومي - شارع فكتوريا - أشار المستر جريك نفسه الى دار جميلة ذات حديقة غناء قائلا هذا هو بيت الدكتور بروكس فلحظ الرئيس عليه أمره ، ولم يشأ احراجه

وعلم معاليه أثناء حديثه مع الحاكم أن هناك منزلا يؤجره هو لنفسه يقيم به بعض الاوقات

ملحوظة : (لم يكن ذلك الرجل حاكما وانما كان ينوب عن الحاكم الجديد الذى لم يعين بعد ووظيفته الاصلية قاض)

ويمكنه تأجير ذلك المنزل للرئيس أيضا كي يقطن به باقي أصحابه لان منزل بروكس لا يكفي الجميع ، وقر الرأي أخيراً على تأجير البيتين

ومكثنا من يوم لآخر ننتظر النبأ من جريك بتمام اعداد البيتين

للسكن ، ولما وصلنا من أصحاب الرئيس بعدن تلغراف ينبىء بوصولهم القريب يوم ١٧ مارس سنة ١٩٢٣ طلب الي الرئيس أن أذهب لمقابلة المستر جريك بماهي والاطلاع على ما تم بخصوص البيتين ؛ فانتهزت فرصة وجود القارب الذي يحمل الينا المؤونة من ماهي وعدت به اليها

وقد أخذتني الدهشة والاعجاب معاً من نظافة البلد ، وجمال أكواخها وطرقاتها الصغيرة ، وكثرة أشجارها ونباتاتها ، التي اصطفت على جانبي الطرق التي كانت من رمل أحمر بديع .

محرر جريدة

ولاحظت ان جميع القوم يلبسون ثياباً افرنكية بيضاء الا قليل جداً من الهنود يلبسون الجلاليب القصيرة .. كما ان كثيرين من القوم حفاة الاقدام ويلبسون قبعات عريضة جداً من القش .

وقد كان طربوشي الاحمر وبذلتي السوداء مدعاة لاتباع بعض القوم لي عن بعد ونظر الجميع الي بفضول يخالطه شيء من الحذر .

ودنا مني في الطريق رجل طويل القامة أبيض اللون ، ذو لحية ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة ، ويضع على عينيه نظارات سوداء ، وحياني باحترام مقدما نفسه الي بأنه المسيو أفيس دي بويسون صاحب ومدير جريدة ريفيو سيشلوا التي تصدر أسبوعياً في ماهي ، ثم قال أظن انني فى حضرة سكرتير زغلول باشا ، فقلت له (بعد أن أجبت تحيته ، وعبرت عن سروري بمعرفته) لا ، لست الا تابعه فقط ، وخادمه الخاص ، فرجاني أن أعبر للرئيس عن تمنياته الطيبة ، وانه سيتشرف بزيارته عند انتقالنا الى ماهي ، ثم ودعني باحترام ومضى في سبيله .

وكان يحادثني وهو يسير بجانبي حتى أوصلني الى دار الحكومة ، فدخلت الى هناك وقابلت المستر جريك الذى حاول أن يقنعني من الغنيمة بالاياب ، وافهمني انه يهتم بتنفيذ هذا الامر الذى سيتم في

أقرب وقت ، ولكن عرفته انه لدى الوقت الكافي لمساعدته . وان الرئيس منتظر فى ايل لونج أن أعود اليه بما رأته عيناى لا ما سمعته أذناى ، ولما رأى منى الاصرار على رؤية البيتين اصطحبنى اليهما فذهبنا أولا الى بيت الدكتور بروكس .

ويمر الداخل اليه فى طرقة بديعة ملئت بأنواع النباتات والزهور العطرة التى اصطفت على الجانبين ، ويحوط البيت حديقة غناء كبيرة وكثير من أشجار الفاكهة ، كالموز والمانجو والاناناس ، والقرفه والكبير ده بيف والليمون وغيرها ، كما ان بها كثيراً من شجيرات البن وجوز الهند . . ويمر خلف البيت نهير صغير ينحدر الينا من أعلا الصخرة ، وليس لهذه الحديقة الهائلة حدود تنتهى عندها ، ودخلت المنزل فوجدته يحتوى على صالون كبير وغرفتين للنوم ، وغرفة للمائدة ، وحمام ومطبخ ومخزن وبالحديقة عدة غرف أخرى تصلح للاستعمال أيضاً ، وكان به كل الاثاث والامتعة اللازمة تقريباً لغرف النوم والمائدة ، والصالون والحمام ، (فلم افهم معنى قول المستر جريك ان البيت سيتم عن قريب ومحاولته ارجاعى الى ايل لونج بدون رؤيته مع انه على غاية التمام ، نعم لم افهم ذلك بادىء الامر ، ولكن عند مقابلة الرئيس علمت الداعي لذلك التردد ، وتأكدت منه عند انتقالنا الي ماهي ، والقائى النظرة الثانية عليها .)

وذهبت معه كذلك الى منزل آخر يبعد عن الاول نحو الدقيقتين وعرفني انه المنزل المعد لاصحاب الرئيس الذين يصلون يوم ١٧ مارس سنة ١٩٢٢ ، فتفقدته فاذا هو مفروش بأثاث بديع ، نظيف للغاية ، وبه أربعة غرف وصالون كبير به بلكون كبير يشرف على البحر وبه حديقة صغيرة (ومع ذلك فلم يك الانسان في حاجة الى حديقة في ماهي

لان الجزيرة كلها حديقة واحدة هائلة في وسط المحيط .

ولما اطمأننت من كل ذلك ، أخبرته بأن الرئيس يرغب فى الانتقال غداً ، ولذلك يرجوه الحضور الى ايل لونج ليباشر أمر انتقالنا الى ماهى غداً قبل وصول أصحاب الرئيس (وكان ذلك من فكرى) فوعدنى بذلك وانصرفت

رجعت تواً الى الرئيس في ايل لونج وأخبرته بكل ما عملته ورأيته وعلمته ، فسر بما فعلت .

وحوالى الساعة الرابعة من اليوم التالى انتقلنا الى ماهي وكان ذلك يوم ١٦ مارس سنة ١٩٢٢

(وقد قام بفكري ان احفر اسم الرئيس ، والاستاذ مكرم ، واسمي ، على شجرة كبيرة وتاريخ وصولنا اليها ، ففعلت) وفارقناها ، تاركين ذلك الاثر .

وكم كان أسف تامبي وعائلته على فراقنا ، لقد بدا ذلك على وجوههم وهم وقوف على شاطيء الجزيرة يلوحون الينا بأيديهم ونحن باللنش متجهين الى ماهي .

وصلنا الى ماهي بعد ساعة من الزمن ، وقبل أن أصف ما جرى لنا بها ، أود التكلم أولا عن جزاير سيشل وعلى الاخص ماهى التى كان مستقرنا بها . : —

وصف سيشل وماهى

سيشلز اسم لمجموع جزر يبلغ نحو ال ٥٠ جزيرة وهي على مسافة ٩٤٠ ميلَ من شمال موريس ، وجنوب خط الاستواء ثلاث درجات تقريباً وقد تكونت تلك الجزائر قديماً من الرمال وصخور المرجان — وأهمها: ماهى ، وهى العاصمة

وسانتان(١) ، وايل لونج ، ولنوايين ، والفنونيم ، وايل سيس ، وبرالن ، ولاديج ، ومايل ، وسلويت ، ولينو ، وأغلبها غير مأهول ؛ وانما يؤمها العمال للقيام بأعمال بها .

وبعضها قريب من ماهي يبعد عنها مسيرة ساعة أو نصف ساعة ، والبعض بعيد يبعد عنها مسيرة أربعة أيام بالمراكب الشراعية .

ومحصولات تلك الجزر هي جوز الهند الذى تصدره خاما وليف جوز الهند ، الذى يستعمل لصنع المراتب ، وزيته وخشب القرفه ؛ والسكاكاو ، كما أن بها أنواع ثمينة من الخشب النادر الذى يستعمل لصنع الموبيليات الفاخرة فخشب الكوكوده مير ؛ والتاكاماكا ، والبوادى نت ، والبوادى ؛ وتنبت بها الفانيليا بكثرة ، ومن فواكهها المانجو والموز الذي يوجد بكثرة هائلة ؛ والاناناس والباباس وقشطة الشجر ، كما يوجد بها من الفواكه الغريبة ؛ الاڤوكا وتشبه البرتقال الاخضر وفي حجمها المتوسط ، وداخله ناعم جداً ؛ ودهني الطعم ، وكالفرينيه (والكيرده بيف) وهو من فصيلة القشطه . وأكبر منها حجما . وله طعم يشابه طعمها غير ان هذا رملي قليلا . والجاك . وهو ثمر كبير جداً يبلغ متوسط حجمه حجم البطيخ البلدى . اخضر اللون . ويحمله شجر عال . ولا خطر من سقوطه رغم حجمه الهائل . لشدة تماسكه بشجره واذكر هنا على سبيل الفكاهة . أنى عند رؤيتي لهذا الثمر لاول مرة في ايل لونج ، . لم اتمالك ان ضحكت . فسألنى معالى الرئيس والاستاذ مكرم عن سبب ضحكي فاجبتهما أنى ضحكت : لموافقة هذا الثمر لنظرية جحا . اذا عز عليه ان يرى البطيخ الكبير يثمر فى الارض

---

(١) جزيرة المجانين

والجميز وهو أقل منه قيمة يثمر فى شجر عال . ولكن ماذا يكون حاله اذا اخذته سنة من النوم تحت شجرة الجاك . وأطاعت الريح واحدة فسقطت على رأسه . ؟ ؟

والبرد فوت . وهو اخضر الجلد في حجم السنطاوى. ابيض اللب وتعده الاهالى طعاما فاخراً جداً . ولا اعرف له طعما لانى لم اذقه قط. وسبب ذلك هو القصة الآتية .

لما كنا فى ايل لونج (الرئيس والاستاذ مكرم وأنا .) جاءنا تامي بشيء منه . وقال لى . اذا ذقت هذا فسوف لا ترجع الى بلادك قط وستظل هنا الى آخر العمر . ففهمت قصده وهو ان يبالغ فى لذة طعمه . التي ستقوينى على اتخاذ سيشل وطنا الى الابد. ولكنى مع ذلك تشاءمت. وعافتها نفسي لساعتها . فلم اذقها قط .

ومن أغرب محصولاتها الكوكوده مير . (جوز البحر) وهو في حجم العبد اللاوى الكبير وقشره خشبي بديع . يؤكل داخله الذي الذى يشبه الجيلاتين مع اضافة شيء من السكر أو الشربات. وتقول الناس هناك ان هذا الثمر يبقى سبعة سنوات على شجره ولا يجنونه حتى يسقط من تلقاء نفسه فيكون ذلك دليلا على صلاحيته للاكل وخشب شجره اثمن الاخشاب التى بسيشل

أما مصنوعاتها فليس منها ما يستحق الذكر سوى السكاي الذي يصنعون منه علب السكائر والاقلام الفاخرة وزرار القمصان. ودبابيس الشعر .

والعصي التي يصنعونها من أثمن الاخشاب خصوصا ما يصنع منها من خشب الكوكوده مير

وما يصنع من سن السمك (وهو سلسلة سمك البشارك)

ويصنعون هناك أيضاً صناديق صغيرة (شكمجيات) من خشب ثمين جداً . صنفا بديعاً للغاية

كما يصنعون القبعات الخوص ، والاحذية القش أما التطريز ، فهذا ما تمتاز به نساء جزيرة ماهي التطريز باليد والخياطه

أما جوها فحار رطب ، ولكن المياه المحيطة بها وكثرة الامطار ، وانتشار الاشجار والنباتات بكثرة عظيمة مما يلطف حرارة جوها كثيراً

ويبتدىء فصل الصيف وهو فصل الامطار في تلك البلاد من نوفبر وينتهي فى ابريل ، وقد يستمر نزول المطر فى ذلك الفصل يوماً كاملا بل أياما ، ولا ينقطع الا سويعات قليلة ، وفصل الشتاء أو (الفصل البارد) وتقل فيه الامطار ، يبتدىء من مايو الى اكتوبر

وتنقسم ماهى (العاصمة) الى : ــ پورت فكتوريا ، وبلير واموزفليرى ، وكاسكاد ، وهذه أهم أقسامها ، وتوجد بپورت فكتوريا وهي الميناء ، دور الحكومة ، ودار الحاكم ، وبناية الجمرك والبوستة ، ومركز البوليس ، ومصلحة التلغراف البحرى ، والمحلات التجارية ، وكثير من المساكن ، وليس بها الا قليل من الشوارع المنظمة والباقي ممرات صغيرة (مدقات) ، ويضاء شارع فكتوريا فقط بالبترول ، أما باقي الشوارع والممرات فتبقي في ظلام دامس طول الليل

وممراتها : طرق ضيقة صغيرة صاعدة منحدرة معوجة ملتوية يمر السائر فيها بين صخور وكهوف ، جللتها الخضرة الجميلة . والأشجار الباسقة ، ومياهها عذبة ، وتوجد الحنفيات فى كل البيوت

وبها حديقة عمومية للنزهة ، بل يمكن القول بأن الجزيرة كلها روضة فيحاء ، غاصة بأنواع الاشجار الباسقة والدوح الشامخة ،

والنباتات النضرة والازهار العطرة ، ولقد يكون وصف شاعر ناشوقى أقل ما توصف به تلك الجنان

تلك الطبيعة قف بنا يا ساري   حتى اريك بديع صنع البارى
الارض حولك والسماء اهتزتا   بروائع الآيات والآثار
ولقد تمر على الغدير تخاله   والنبت مرآة زهت بأطار
حلو التسلسل موجه وخريره   كأنامل مرت على اوتار

وبها كثير من الطيور المغردة ، كالهداهد والبلابل والعصافير ذات الالوان الجميلة ، يتردد صدى تغريدها أينما سار الانسان وحل ، وأرضها رملية حمراء بديعة ، وغالب صخورها السوداء اللامعة تلبس حلة خضراء مما ينبت عليها من النباتات الصخرية ، وما يتفجر بها من العيون

وبها حوانيت يجد الانسان بها بعض الحوائج الماشية من مأكل وملبس ، وهي صغيرة ذات سقف منخفض وتشبه في نوع ما حوانيت جهة تحت الربع بمصر ، من حيث سقوفها المنخفضة وتراكم الحوائج بداخلها من غير انتظام ، ويدير هذه الحوانيت قوم من الهنود والصينيين الذين ينزحون الى أمثال هذه الجزائر للتجارة

وليس بها من الملاهي الحديثة سوى السينما ، وليس بها الا واحدة من هذه فقط ، تدار في كل اسبوع مرة ، وقد يعترى الآلة خلل فتظل أسابيع بلا عمل حتي يتم تصليحها

وقد دخلتها مرة ، فرأيت كراسي الدرجة الاولى وهي كراسي الوجهاء والاعيان ، تشبه كراسي القهوات البلدية (كراسي قش) بل أن هذه أحسن منها رونقا

(والجمهور هناك يفهم السينما ، ويتبع التمثيل ، فلا تجد تصفيقا وقتما يجب البكاء ، ولا صفيراً وقتما يستلزم السكون كما في مصر)

ولا تسمع كذلك (ارجع .. يا ... ؟ .. ايه .. ؟) الى غير ذلك مما نعلمه من أنفسنا ، ويعلمه الغريب منا

ـ وكثيراً ما يقيمون الحفلات الراقصة فى بيوتهم وسأتكلم عليها عند الكلام عن جنسية القوم ولغاتهم ، وعوائدهم .

وأما كن اللهو بها غير محدودة ، ويمكنك أن تجد لهوك حيث أردت .

وهناك حانات أيضاً ولكنها قليلة ، وما بها من الخمور الافرنكية قليل كذلك ، فهذه لا توجد بكثرة الا عند التجار ، أما أصحاب الحانات السوقية فكانوا يخزنون كثيراً من الباكا ، التى يشربها الجمهور ويمكنني أن اسميها « بوظة ماهى » اذ هى عصير قصب السكر مخمر ومجهز بطريقة تجعله شديد الفعل ، ويشترونه رخيصا جداً

فالعشرة لترات بروبية واحدة ، وهذه كافية لاضاعة صواب عشرة أشخاص

وقد أردت تذوقها مرة فما قربتها من فى حتى اندفعت رائحتها بشدة الى أنفى كرائحة النشا التالف فعافتها نفسي وكان بودى أن أعرف طعمها .

يحسن بى قبل الكلام عن أهالى تلك الجزيرة أن انوه بشيء من تاريخها ليساعد على تعرف جنسيتهم ويحلل الدماء التى تجرى في عروقهم

علمت من تاريخ تلك الجزيرة أن البرتغاليين اكتشفوها في القرن السادس عشر وحل الفرنسيون مكانهم زمنا طويلا وأتى هؤلاء واولئك بكثير من العبيد من أفريقيا ليسخروهم فى القيام بالاعمال بها ثم بيعت الى انجلترا سنة ١٨٠٤ لأهميتها كمحطة للسفن بين ساحل أفريقيا والهند (وأظن لقربها من جزيرة موريس التابعة لانكلترا أيضا)

وبتناسل العبيد مع البرتغاليين والفرنسيين على الاخص والانكليز نتج على توالى الايام ثلاثة ألوان بتلك الجزر ، البيض والسمر والسود ولا زالت لغتهم الى الآن الفرنسية المشوبة بشيء من الزنجية من حيث اللهجة والالفاظ ويطلقون على هذه اللغة كما يطلقون على أنفسهم اسم الكريول « Creole »

تغلب النحافة فى كثير من رجالهم كما تمتاز نساء تلك الجزر بضخامة النهود واتساع العيون وعيونهن أجمل عيون في العالم يندر جداً أن يعثر الانسان بين السيشليين على مريض بعينيه ، أما ملابسهم فهى الثياب الافرنكية العادية (البدلة) ولكنها من التيل الابيض فقط ويلبسون قبعات عريضة جداً من الخوص تصنع هناك وكثير منهم يسير حافي القدمين وذلك لنظافة الطرق وندرة الحشرات الضارة بها وبيوتهم عبارة عن اكواخ صنعت من الاخشاب الجميلة التى تنبت هناك وتحوطها الاشجار والنباتات من كل جانب وداخلها نظيف جداً ويصقلون ذلك الخشب بمادة تستخرج من منقوع بعض أخشاب لا أذكر اسمها ولا يشتمل البيت الكبير الا على صالون وغرفتين للنوم ، وحماماتها تشبه المغاطس عندنا

أما طعامهم فاغلبه السمك والارز المطبوخ بزيت جوز الهند ولو أنه حقير ولكنهم يعتنون جداً في تناوله فينظمون موائدهم تنظيما بديعاً وأغلبهم يستعمل (الشوكة والسكين)

اخلاقهم وعاداتهم

في أخلاق السيشيليين خضوع وذلة ، ومن طبائعهم النفاق والكذب لا فرق في ذلك بين الغني والفقير ، ولا يشمل وصفي هذا جميعهم بل يتناول معظمهم من سيدات ورجال

والحالة الادبية بين اولئك القوم شأنها شأن الثغور الشرقية ، التي تطرقها البواخر الاجنبية التي تحمل جماعات من مختلفي الامم ، والجنود البحارة ، فان تعود النساء الرقص والمخالطة بالبحارة الانجليز على الاخص وغيرهم على العموم جعلت علاقة شبه مستديمة ، بين جنود كل باخرة وركابها ، وبين الاهالى ، فلهذا السبب يزداد عدد المواليد وتقل الرابطة العائلية

ولو أن تلك الجزر فى عين الشرق ولكن القوم هناك ينكرون بشدة العادة التي يمتاز بها أهل الشرق وهي الغيرة ، ومن أغرب ما اذكر رجلا هناك يدعي المسيو لانيه وهو يقوم بوظيفة قنصل فرنسا فى تلك الاصقاع ، يطلق عليه الاهالى اسم (روادي فام) ملك النساء ، وعلى ما سمعت من أفواه الكثيرين هناك ، يمكنني القول ، بأن أبطال قصور الف ليلة ، وملوكها لم يتمتعوا بما تمتع به هو ، من كل هيفاء كعوب ، وناهد لعوب

(لم يكتب بايضاح) لاحتمال المسئولية :

ومن عوائد القوم أن يستيقظوا مبكرين وان يناموا كذلك ، فما تحين الساعة التاسعة حتى ترى الطرق مقفرة ، والجزيرة فى ظلام دامس كأنها قطعة من الليل

وكم نظرت اليها من مينا بلير وهي أعلا نقطة مسكونة تقريباً

في الجزيرة ، بعد هذا الوقت ، فكنت اشعر كم أننا بعيدون ومنقطعون عن العالم

ومن طبائعهم النظافة في ملابسهم ومساكنهم ، واني أرى ان خلو بلادهم من الأتربة يساعدهم على ذلك .

أما مهنهم وحرفهم ، فاغلبهم يشتغل بالتجارة وهم ليسوا على شيء من المهارة فيها ، وصيد الاسماك ، وصنع المراتب من ليف جوز الهند ، وصناعة السكاى ، وهم مهرة فيها ، وكثير منهم يزاول عدة مهن وحرف . فقد عرفت حلاقا ، يلم بتنظيم الطرق . . . وعرفت المسيو افيس دي بويسون صاحب ومحرر جريدة ريفيو سيشلوا ، يملك متجراً ، للخردوات والاواني الخزفية ، واطارات الصور ، وعرفت طبيب الاسنان يقوم بوظيفة قاضي صلح ، وهو في نفس الوقت مدير ادارة البوسته العام .

وكان طبيبنا (حفظه الله) جراحا ، ومجبرا ، وطبيب أمراض باطنية ، وصيدلي وكيماوي ، وعرفت مدرساً ، وهو ضابط بحري ، في المراكب التجارية ، الشراعية ، وغيرهم كثيرون من هذا القبيل (والشاطر يغزله برجل .) .

وتحترف النساء الخياطة والتطريز وهن على مهارة كبيرة فيها ، وكذلك يحترفن الغسيل ، وقليل منهن يحترفن التجارة .

أما أفراحهم وحفلاتهم : فلم احضر من الاولى شيئاً قط ولم اسمع بفرح عقد زواج طول مدة وجودنا بها . ولقد سألت شاباً من أهالي البلاد المتعلمين عن السر في ذلك ، فاجابني بأنه لا عهد له بافراح عقد الزواج منذ سنتين ، ثم قال وعلى وجهه علائم الالم ، يظهر ان القوم هنا يفضلون الاباحية على غيرها من المبادىء ؟ ؟ لذلك لا استطيع وصف أفراحهم ، التي كانت تحصل قديماً واعني بها المعنى الذي تفهمه بعصر أي

أفراح عقد الزواج .

أما الحفلات فقد رأيت منها ما سرني واستدعى اعجابي رأيته القوم يجتمعون أيام الآحاد ، كل فريق في بيت أحدهم ، أو احداهن، رجالا ونساء ، وبينهم الاوركسترا وهي مكونة من ثلاثة أشخاص أو أربعة أحدهم يحمل دفا ينقر عليه والآخر ينفخ في ناي والثالث في (مزيكة فم) .

ثم يتخاصر القوم فتيات وفتيان ويرقصون رقصاً بديعاً على طريقة بين الشرقية والغربية بترتيب ونظام بديعين وكلما تعبوا ، عمدوا الى الجلوس وسكتت الموسيقى قليلا ريثما تدور عليهم ربة البيت بأقداح الباكا ، (عصير قصب السكر المخمر) ثم يعودون الى الرقص ويختلط الحابل بالنابل ويكثر الهرج والمرج فيخرجون من دائرة النظام الى الركض والجرى والقفز كل بمالكة لبه ، أو زوجه ، وينصرفون الى مساكنهم ، هذا عند الفقراء ومتوسطى الحال منهم .

أما عند أغنيائهم ، فحفلات الرقص والموسيقى شأنها شأن الحفلات الاوروبية تماما ، غير ان هذه اصغر كثيراً ، ولا طرب فيها غير البيانو .

وكثيراً ما كانت تقيم جارة لنا وهي مدام ديبويسون ، حفلات رقص ، من هذا النوع يحضرها كثير من عقيلات ماهي وسيداتها وآنساتها .

وكم كان يلذ لنا مراقبة حفلات جارتنا الكريمة ، وكم وددت لو كنت رشيق القوام فامتع بالرقص بينهم مثل غيري .

التعليم في ماهي : يوجد هناك كلية فيكتوريا وهي تتبع الحكومة، وكلية كارنجي ، على اسم منشئها المثري الامريكي الشهير ، الذى وقف عليها جزءاً من ماله ، للتعليم .

وغير هاتين الـكليتين توجد عدة مدارس صغيرة للاطفال تقوم السيدات بمهنة التدريس بها ، وأغلب هذه المدارس عبارة عن اكوخ صغيرة توضع بها الادوات، أما التعليم فني وسط الحدائق بين الزهور والرياحين ، فما أبدعه منظراً .

وتدرس اللغة الانجليزية بكليات ماهي ومدارسها بهمة عظيمة لان الحكومة تعمل على نشرها كثيراً ، وسوف لا يمضي زمن طويل حتي تصبح لغة القوم يتلقنها الاطفال من أفواه أمهاتهم ، فتتلاشى بذلك الكريوليه فتصبح الفرنسية على أثرها ، نسياً منسياً .

وجميع أهل البلاد من المسيحيين عدا أفراد يعدون على أصابع اليد الواحدة من الهنود المسلمين الذين برحوا اليها للتجارة .

والامن هناك مستتب رغم ملاحظتي كثرة عدد المساجين ، الذين تشغلهم الحكومة فى القيام بالاعمال التافهة والكبيرة ، تحت ملاحظة جنود البوليس وهؤلاء جميعهم من أهالى البلاد ، وغالب جرائمهم سرقة جوز الهند والفاكهة ، ويقوم باعمال الحكومة ووظائفها أبناء البلاد أيضاً ، عدا الوظائف الكبيرة فان الانجليز يشغلونها .

وللبشرة البيضاء هناك ميزة في الحكومة على البشرة السمراء والسوداء ، وكم رأيت علائم الاستياء بادية على الوجوه من جراء ذلك، وكم سمعت من التذمر والسخط .

في صباح ١٧ مارس استقبل الرئيس والاستاذ مكرم المسترجريك وسكرتير الحاكم ومدير البوليس أصحاب الرئيس الذين وصلوا على مركب كبير .He & O فأنسانا السرور باللقاء آلام البعد وما عانيناه في سياحتنا بالبحر واقامتنا بايل لونج من الوحدة المؤلمة والوحشة المزعجة حضروا جيعاً الي بيت الرئيس وأذكر أن مصطفى بك النحاس

قال لى على سبيل المداعبة وهو يضحك «كيف حالك الآن ؟»

ها قد وصلت قبلنا الى سيشل. فاجبته بان النسبة لا تزال محفوظة فلا يفرق بين زمن وصولى ووصولك سوي عشرة أيام ، (ونحن نشير بذلك الى ما كنا نقوله ونحن بسجن عدن من أن زمن اقامتنا فى المنفى سوف لا يزيد عن شهر ونصف حسب ما كنت أتنبأ وشهرين حسبما كان يؤكد بذلك هو)

أعد لهم البيت الآخر ليقيمون به ، ولكن كان جلوسهم وطعامهم وسمرهم فى بيت الرئيس والاستاذ مكرم وكانت الحياة هناك بادىء الامر هادئة جميلة لا تشوبها شائبة وقد كتب الرئيس ضمن خطاب الى صاحبة العصمة حرمه المصون .... (ونحن نعيش عيشة هادئة ويجتمع الكل للاكل معاً كما كنا نجتمع فى مصر)

كانوا يتناولون الطعام أربع مرات فى اليوم، ويتكون طعام الفطور من البيض والشاى واللبن والجبن والزبد والعسل النحل الذى يوجد هناك بكثرة وهو أنقى ما رأينا من نوعه وبعض الفاكهة . . والغذاء من السمك والدجاج واللحم البقرى أو الضأن (أحياناً قليلة) والخضراوات والحلوي والفاكهة وكذلك كان العشاء ، وحوالى الساعة الرابعة كانوا يتناولون فنجاناً من الشاي وقطعة من البسكويت... والبيض فى تلك البلاد كبير الحجم ورخيص الثمن وكذلك الدجاج التي يمكن الحصول على دجاجتين كبيرتين منها بروبية واحدة والسمك موجود هناك بكثرة هائلة وثمنه زهيدة جداً يدعو الى الدهشة وكنا نحصل على ماية جوزة ومايتين أحياناً بروبية واحدة وكذلك المنجو فكان يمكن الحصول على دستين من الكبيرة منها بروبية واحدة كذلك

وهناك نوع لذيذ جداً من السمك يطلقون عليه اسم مدام بارى

كان الرئيس وصحبه يفضلونه على كثير من أنواع السمك وهو يشبه البياض عندنا ولكنه أكبر حجما وألذ طعما ، ويكثر هناك اللانجوست الذى يندر وجوده جداً فى بلادنا ويرتفع ثمنه هنا الى حد أنه اذا وجد فلا يمكن لمتوسطى الحال شراؤه . وهناك يكثر اصطياده وبيعه فكان الثلاثة أو الاربعة منه تشتري بروبية ونصف أو روبيتين على الاكثر وهذا النوع من السمك لذيذ الطعم جداً وليس هناك سوق منظم للمأكولات وانما كان المتعهد يحضر لنا ما نريده وكان يمر بنا قوم في بعض الاحايين يحملون دجاجاً أو بيضاً أو سمكا من اللانجوست أو فاكهة طيبة مما يعرفون انه يجد لدينا اقبالا فنشتريه منهم بسخاء .

والخضروات الموجودة هناك بعضها معروف لدينا وموجود بمصر كالفاصوليا والقرع والبعض الآخر لم نره من قبل كالسبستين وورقه عريض كالخس ويطبخ كالخبيزة والباتول وهو في طول القثاء وشكله ولكنه رفيع ويطبخ لبه

ورأيناهم فى ماهى يأكلون اللوف وهو صغير جداً قبل ان يصلح للاستعمال الحمام ويطبخون أيضاً نوعا من جذوع الشجر يشبه القلقاس .

كانت الحكومة تعطي خمسين جنيهاً مرتباً شهريا للرئيس وثلاثين جنيهاً لكل من أصحابه تدفع من ذلك أجرة البيتين وأثمان المأكولات ومرتبات الخدم الذين كانوا من أهل تلك البلاد وكانت أجرة البيتين مائة روبية في الشهر ولا يزيد مرتب أمهر خادم فى تلك البلاد عن عشرين روبية فى الشهر بل أن هناك كثيرون من موظفى الحكومة الذين يقومون بأعمال كتابية ويجيدون الكتابة على الآلة الكاتبة ويحسنون الفرنسية والانكليزية والاختزال لا يزيد مرتب الواحد منهم عن العشرين روبية في الشهر وبالأجمال فان الاجور هناك زهيدة جداً

لكل شيء وأثمان الطعام كالسمك والارز والخضروات والفاكهة بخسة للغاية . أما الملبوسات والاطعمة التي تستورد من الخارج فهي غالية جداً وقد اسعدنا الحظ مرة بالحصول على وابور للطبخ (بريمس) قديم قد أكل عليه الدهر وشرب وتتداوله يد الصانع لتصليحه أكثر من عشر مرات فكان ذلك من مميزاتنا عن أهل البلد

لما كان الجو هناك حارا ويلبس أهل تلك البلاد ملابس بيضاء خفيفة اضطررنا للبسها أيضاً ولكن لم يك عند أحد منا شيء منها لذلك فعلنا كما يفعل القوم هناك اذ يشترون القماش وتأتي امرأة من اللاتي يزاولن الخياطة فتأخذ القماش وتأخذ بدلة تعمل منها مثالا طبق الاصل ولا يعرفن التفصيل على الجسم كما لا يأخذن على ذلك أجراً كبيراً فكنا نحن بصفتنا أغنياء ذلك البلد نعطي ثلاث أو اربع روبيات لعمل البدلة كاملة وكنا هناك نرتدي الطربوش وكثيراً ما كان البعض منا يجول الطرقات عاري الرأس . كان الرئيس واصحابه لا يخرجون الى الطرقات كثيراً بادىء الأمر وكانوا اذا خرجوا لا يخرجون الا جماعة يمشي الرئيس في مقدمتهم وهم من حوله كهالة ويمتد البنان بالاشارة وتشرئب الاعناق لرؤيتهم فما كان اغبطنا بتلك الالفة وما كان اسعدنا بذلك الاجتماع

وكان القوم يظهرون لنا أجل احترام وتعظيم ويقولون أنهم لم يروا قوما في مثل رقينا وآدابنا وقد علمنا بعد قليل من وجودنا بماهي أن هناك ثلاثة ملوك منفيون مثلنا

أحدهم وقد مضي عليه بماهي ما يزيد عن العشرين سنة وهو رجل اسود طويل القامة ذو ذراع واحدة وأصله (ملك أوغندا) وكان يزاول تجارة الدجاج في سيشل . والثاني ملك (زنزبار) وولده الذي قابلته ذات مرة

عند ما حضرت الى ماهي وحدى لما كان الاستاذ مكرم يأتي لوتج للاستعلام عما تم في أمر البيت فنزل من اليوس مسرعاً ومد يده الى مصافحاً بحرارة وشوق كاصدقاء قدماء وخاطبني بالعربية الفصحى قائلا كيف حالك الآن ؟ طيب بخير ؟ .. هل أنتم من مصر فأجبت نعم. ولم نزد على ذلك فى حديثنا لان المستر جريك كان يصحبني وكنت أعرف أنه يفهم العربية كأبناء بلاد (مالطة) وقد قضى بمصر أيضاً سنة كاملة كان ذلك الشاب ابن حاكم اوغنده يلبس طربوشاً قصيراً ويرتدى ثياباً افرنكية لا بأس بها وقد جاء وصولنا الى سيشل خيراً عليه وأبيه فلم يمض شهر حتى علمنا بأنه افرج عنهما وارسلا الى دار السلام حيث فضلا الاقامة بها عن زنزبار وكان الناس يقولون لنا بهذه المناسبة أنهم وان كانوا لا يودون فراقنا ولكنهم يتمنون لنا تحقيق امانينا والافراج القريب عنا وقد يكون كذلك . على مسيرة خمس واربعين دقيقة من شارع فيكتوريا حيث كنا نقطن توجد عدة مساكن بينها بعض الاكواخ الجميلة التى يقطنها بعض من علية القوم هناك والقاصد الى تلك الجهة يلاقي عناءاً جسيما وتعبا شديداً في الوصول اليها لارتفاعها الهائل اذ كانت اكثر الجهات ارتفاعاً في الجزيرة بأجمعها .

والطريق اليها عسر كثير التعاريج وتسمى تلك الجهة بيلير ويوجد هناك بنيان لرجل عجمى مسلم من أكبر أغنياء جزائر سيشل ويدعى على رسول، وعلى رسول هذا شاب يناهز الخمسة والعشرين من عمره نحيل الجسم قصير القامة وديعاً مؤدباً ظريفاً يتكلم الفرنسية الفصحى كأحد أبنائها ولا يعرف العربية وقد ورث عن أبيه مالا طائلا وعدة جزر يستخرجون منها اسمدة كيماوية يصدرونها الى الخارج وله كثير من المراكب الشراعية التى تروح وتغدو بين سيشل وما حولها من الجزائر

الغربية كموريس ومدغشقر وزنزبار والهند وله في قلوب الاهالي منزلة تحسده عليها سلطان كبير فهم يحبونه ويقدسونه لأنهم يلجأون اليه في المهمات ويهرعون اليه اذ ما عض الفقر أحدهم بنابه أو مسه ظلم وأذى. وهو الوحيد الذي يمكن لاى أحد من الاهالى أن يتناول من اشجاره ماتريده نفسه من جوز الهند وعلى ذكر ذلك فقد علمت أن عقوبة سارق جوز الهند هناك هي ستة شهور سجن. نعود الى البيتين اللذين أخذت في وصفهما فقد كان يقطن أحدهما ذلك الرجل الذى قابلنى مرة فى شارع فيكتوريا وعرفنى بنفسه بأنه يدعى المسيو افيز دي بوسون محرر جريدة ريفية سيشلوان هو وعائلته المكونة من زوجته وهى سيدة شقراء بدينة عيل سواد العين منها الى الجانبين وديعة تميل الى المجتمعات وتألفها كثيرا ويزورها كثير من عقيلات ماهي وسيداتها نظرا لحسن مجالستها ولطف منادمتها ومقدرتها على امتلاك القلوب وجذب الافئدة وكان لها ابنة وولدان أحدهما من المسيو دى بوسون وأما الولد الآخر والصبية فكانا من غيره

وكان الرجل وزوجه على غاية من النشاط اذ كان الاول يترك منزله حوالي الساعة الخامسة من الصباح حيث يذهب الى مقر اعماله وبعد قليل من خروجه تخرج امرأته أيضاً بقميص نومها سادلة شعرها الكستنائي البديع وتنتقل من مكان الى آخر قائمة قاعدة مقبلة مدبرة تجمع الزهور من هنا وهناك من الحديقة الواقعة ما بين البيتين فتعمل منها باقة جميلة يانعة وكان المنزل المجاور لتلك العائلة خاليا لا يسكنه أحد لان على رسول يعده لنفسه ليسكن فيه مع عروسه بعد حضوره من أوروبا حيث ذهب منها قبل وصولنا لقضاء شهر العسل وقد كان كامل البناء تقريباً غير ان الحمام وبعض الاشياء لم تتم بعد فلم يمنع ذلك سينوت

بك ومصطفى بك من السعي فى استئجاره من المسيولانيه وكيل أشغال
على رسول وقد عثرا بذلك البيت اثناء بحثهما الذي كان نتيجة لرغبتهما
فى التمتع براحة لا توجد في بيت واحد يسكنه اربعة وهم فتح الله باشا
وعاطف بك وسينوت بك ومصطفى بك لذلك قبلا ذلك المنزل على بعده
واصبح لنا بذلك ثلاثة بيوت اثنان فى فيكتوريا وثالث فى بلير وظلوا
يجتمعون جميعهم للطعام والحديث فى بيت الرئيس الا انهم كانوا يتناولون
الفطور منفردين فى بيوتهم ويسهرون مع الرئيس حتى الساعة التاسعة
او العاشرة ليلا على الا كثر ثم ينصرف كل اثنين الى بيتهما وقد وجد
سينوت بك ومصطفى بك أن الاستاذ مكرم يشكو من رطوبة غرفته
التى يسكنها في بيت الرئيس فدعياه للاقامة معهما اسبوعاً لتبديل الهواء
في بلير وليتمتع باشعة الشمس والهواء النقى فقبل وذهب

ومضي اسبوع فثان فثالث وعرض سينوت بك ومصطفى بك على
معالى الرئيس ايضاً ان يقيم معهم بضعة ايام فى بليرلتبديل الهواء وقد
اعدوا له غرفة نقلنا اليها كل ما احتاج معاليه اليه من الأمتعة والاثاث
خفيفاً كان او ثقيلا وذهبنا على عزم قضاء بضعة أيام فى بلير ولكن
الرئيس استطاب الاقامة فلم نعد نفكر في بيتنا الاول ولم نرجع اليه
قط ولكن لم يزل هناك فى فيكتوريا عاطف بك وفتح الله باشا يعيشان
وحدهما الا اوقات الا كل فكانا يحضران الى بلير وينصرفان بعده
بقليل وكانا يتغلبان على مشقة الطريق ووعورته وطول المسافة بالسير
بتؤدة وبالحديث .

(من هنا يبدأ الحديث عن حالتنا النفسية الخصوصية . واحاديثنا
عن مصر . وراينا في سياسة انجلترا ــ)
بالترتيب المبين في القائمة نمرة ٢

في أول وجودنا بماهي، قدم المستر جريك جوابا من الحاكم الى الرئيس وصحبه، يتطلب عدة أوامر، طلب منا اتباعها والعمل بها، منها: اننا لا نحاول الفرار مطلقاً، واننا لا نحاول احداث اضطرابات بين الاهالي ولا نسمح لاحد بزيارتنا الا باذن من الحاكم، واننا من يوم وجودنا بسيشل أصبحنا تحت سلطة قانون البلاد.

وكأن هذه الاوامر لم تكن، لاننا بطبيعة الحال ما كنا لنفكر في الفرار قط، ولسنا من المهيجين فنحدث اضطرابات في سيشل، أما الزيارة، فكنا نزور ونزار كيفما نحب غير ان الغريب عن سيشل اذا رغب المجيء الينا تحتم عليه الاستئذان من الحاكم أو المستر جريك، ولكن الاهالي كانوا يختلطون بنا ونختلط بهم بلا ممانع... وكانت جارتنا في بلير مدام ديبويسون وزوجها كثيراً ما يقومان بالتعارف بيننا وبين كثير من عائلات ماهي وكان رجال البوليس يظهرون لنا الاحترام ويحيونا أينما ذهبنا، وكذلك رجال الحكومة، وقد تناول الرئيس وصحبه الشاي مرة عند نائب الحاكم، ولكن لم يحدث هناك ودبين الطرفين، فلم تتكرر هذه الزيارة

ومما لاحظه الرئيس على نائب الحاكم بخله الشديد وتقتيره وهذا مما لاريب فيه فان الانجليز اكيس من أن يبتعدوا عن بلادهم بآلاف الآلاف من الاميال ليتمتعوا بمأكل أو يتلذذوا بمشرب.

كانت تصلنا الجرائد كل شهر أو شهرين مرة، ولقد كنا ننتظرها على أحر من جمر الغضى، بعد اللحظات ونستطيل الاوقات وما كان أكثر اعجاب الرئيس وصحبه بمقالات الكاتب الكبير والصحفي القدير، « محمدين »

لقد كانت ونحن بعدن، ونحن بسيشل، موضع اعجاب الجميع،

واكبارهم ، واجلالهم .... والسبب في ذلك على ما أرى ، ان مقالاته كانت المقالات الوحيدة التي تنطق بلا خوف ولا وجل ، ولا عجبه فصاحبها ممن لا يخشي في الحق لومة لائم ، وقد سمعته يصرح بمبدئه على مسمع من بعض علية القوم وكبار رجال الصحافة قائلا

اذا ضربت فاوجع فان الملامة واحدة .

وكان من جراء ما قرأناه من أخبار الجرائد أن أصبحنا ننظر الى المستقبل بعين الحذر ، وكانت الفكرة عامة بان الازمة تنجلي بسقوط وزارة ثروت باشا .

اما مراسلاتنا البريدية فلم تكن منتظمة المواعيد ، ولم نك نكتب الا عند ما يصلنا خبر من الحاكم أو المستر جريك بقرب وصول باخرة تحمل البريد ، وكان ما يصلنا بهـا قليل جداً ، لا يشفي علة ولا يبرد غلة ، أما التلغرافية ، فـكانت مضطربة السير أيضاً ، وقد يحفظها المستر جريك معه يومين وثلاثة حتى يرسلها وهكذا يتصرف في الوارد الينا منها ، وما كان في الامكان اصلاح ذلك .

اذا أنت لم تشرب مراراً على القذي ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

ومن خطاب كتبه معالي الرئيس الى صاحبة العصمة حرمه المصون :ـ

«لعل» ما كتبته وصلك وعلمت منه بعض الشيء من حالنا . ولم أكتب اليك من ذلك الحين لعدم وجود البريد ، ولكن اعلن اليوم هنا ان بريداً يسافر غداً ، على ان التلغرافات التى تبادلناها ، وكانت تصلنا في أوقاتها ، قد أوجبت اطمئناننا ، ولا بد أن تكون أوجبت اطمئنانكم أيضاً ، أنا واخوانى مرتاحون ونذكرك بالشكر كثيراً على ارسالك الاشياء التي تكرمت بارسالها مما هو لازم لنا .

ان فراقنـا وان كـان صعب على كما هو صعب عليك غير أنه

الواجب الوطني قضى به ولا بد من تحمل نتائجه بكل صبر ورباطة جأش وانى مسرور جداً من الخطة التي جريت عليها فى غيبتى ، وانى على ثقة من استمرارك عليها وانك لا تفكرى أصلا فى اللحاق بي ، اذ لا شيء يسليني في البعد الا العلم بأن فى مصر قلباً مثل قلبك يشعر بما أشعر ، وأن بيت الامة عامر بأهله ، وبابه مفتوح للزائرين ، منذ وصول اخواننا ونحن متآنسون ومغتبطون بقرب بعضنا من بعض وباجتماعنا في هذه القرية التى يهون علينا أمرها كلما اطمأننا عن صحتكم ، ووردت علينا أخباركم التلغرافية

اخوانى يقدمون لك فائق الاحترام وعبد الله يقبل يديك والسلام »

وكتب معاليه من خطاب الى حضرة صاحب العزة طاهر بك اللوزى : —

« لقد أحسنت صنعا في اقناع الست بعدم السفر وتحسن أكثر اذا أمكنك أن تزيل هذه الفكرة منها ، لان الطريق الينا طويل شاق ووجودها في هذه الجهة يتعبنى أكثر مما يرضيني ، هذا الى الاعتبارات الاخرى الذى ابديتها لك ، وفي الحقيقة انى افضل بقاءها بالحالة التي ظهرت بها ، على سفرها فاعمل لذلك جهدك ، وانى أشكرك كل الشكر على احساساتك اللطيفة ، واخوانى جميعاً يسلمون عليك ، الجو هنا وان كان حاراً ، يلطفه المطر الذي يتساقط في كثير من الاحيان واجتماعنا ببعض يهون علينا كثيراً من صعابات الغربة ، والبعد بيننا وبينهم وان كان شاسعاً ، ولكن بالتلغراف يقرب هذا البعد كثيراً ، ولذلك فاننا نعتمد فى المراسلات عليه ، وفي الاطمئنان عليكم ، على ما يحمله لنا من أخباركم ، جعلها الله سارة على الدوام »

خطابان من الرئيس

١

كتب معاليه أيضا ردا على خطاب من بهى الدين بركات بك الخطاب الآتي :

عزيزى بهى الدين بك

أخذت كتابك واستمليت منه أرق شعور فى أدق عبارة . واصدق اخلاص في أجمل اشارة . وأمتن ارتباط فى أوضح دلالة

واني اعتمد بعد الله على هذه العواطف فى تحقيق الامل . ان كانت آلام الغربة شديدة فهناك ما يخففها بل ما يكاد ينسيها . وهو أولا سبب الاغتراب وثانيا الاجتماع بالاصحاب . وكلاهما متوافر لدينا . فاطمئنوا علينا . خصوصا وان الجهة التى نقيم بها ليست بالشناعة التى يصورها البعد لكم . ففيها محاسن تلطف من حرها لكثرة الاشجار والامطار والخضروات . والنظافة وتوفر أنواع المأكولات . . . وانا هنا مغتبطون بالعيشة معا . كل الاغتباط . والسلام »

٢

وكتب معاليه أيضا من خطاب الى صاحبة العصمة حرمه المصون

لقد أورث سؤالك عن الجو ومحل الاقامة عندنا شكا فى سبب هذا السؤال . بعد أن كنا اجبنا عن مثله عقب حضورنا . وتوهمنا أن هذا ربما كان ناشئا عن اشاعات شاعت عندكم . عن سوء الجهة التى نقيم فيها وسوء جوها . ولا تفتكروا أننا هنا فى عذاب أليم . ولا فى نعيم مقيم

ان كانت فكرة البعد تؤلمنا فالشعور بشرف موجبه يلاشى الالم . وان عز علينا فراقي منك . فان قيامك في البيت من بعدي رفعا لذكره

واستبقاء لمجده . مما يهون علي كل صعب . فاستمرى فيما بدأت فيه . ولا تفتكرى الا فيما يقويه وينميه . كان الله فى حراستك وعونك

جميع أصحابى وعلي الاخص فتح الله باشا . وعاطف بك يقدمون لك عبارات الاحترام . وعبد الله يقبل أياديك والسلام.

* * *

من هذه الخطابات يتضح كثيرا مما كانت عليه حالتنا المادية والادبية نعم لقد كنا مغتبطين أشد الاغتباط ، ولكن « عصفور فى قفص من الذهب » وقد حاولت حرم الرئيس غير مرة الحضور الينا . وكان معاليه أشوق ما يكون اليها . ولكنا كنا لا نستريح الى مجيئها . بل كنا نخشاه جميعا ونخشي عواقبه . ولم يكن الرئيس با كثرمنا سرورا لوجودها فى بيت الامة تستنهض الهمم . وتستحث القلوب

صحة الرئيس والحالة عموما

لا شك أن مسألة الصحة هي أهم ما يتوق القارىء لمعرفته لذلك اقول أن صحتنا جميعا وخاصة صحة الرئيس كانت جيدة في الاشهر الاولى من وجودنا بماهي رغم ما كان عند البعض منا من الامراض المختلفة . وكان طبيب الحكومة يزورنا من حين لآخر . ولما كانت تلك الامراض تهيج بنا احيانا . لم نكن نلجأ لغير الله وذلك الطبيب

ولا يمكنني أن اطعن في مهارته و كفاءته . ولكنه لم يكن اختصاصياً في مرض . ولو أنه جراحا بالفعل ولكنه كان يعالج الامراض الباطنية أيضا . وليس هناك صيدليات سوي صيدلية الحكومة وليس بها كل ما يحتاج اليه الانسان

ومن المضحكات ما حدث لمصطفى النحاس بك الذي ذهب مرة

ليطلب قطرة لعينيه من المستشفى فوضع له الصيدلى مقدار قيراطين منها فى زجاجة كبيرة (لتر) . واعطاه قطارة لا تزيد في الطول عن خمسة سنتيمترات . اما الصنائع الطبية كالاسنان الصناعية والنظارات فليس لها وجود قط . واذا احتاج الواحد الى شيء منها تحتم عليه طلبها من الخارج والانتظار شهرين أو ثلاثة حتى تصل . وقد تأتي وافية بالغرض المطلوب . وغالباً ما تأتى بعكس ذلك . وطبيب الاسنان هناك رجل نصف انجليزى . يشغل وظيفة قاضى صلح . وهو في الوقت ذاته مدير مصلحة الصحة العمومية . وقد حشا سنا بالاسمنت للاستاذ مكرم فلم يلبث حشوها حتى سقط . ووضع سنا في طقم اسنان لعاطف بك فلم تثبت مكانها . واصيب فتح الله باشا بمرض صديدى فى اللثة . منعه من المضغ فخشى ان يسلم أسنانه لمدير البوستة لئلا تسجل عليه خسارتهم

وفي أواخر أيام اقامتنا هناك اصيب الرئيس بخفقان بسيط فى القلب واعترت الاستاذ مكرم نوبات الملاريا مرارا . واني لاذكر يوما كان فريسة بين براثن تلك الحمي الخفية ونقه قليلا فتحايلنا عليه حتى ترك فراشه وجلس على شازلونج فى الفيراندا . واقبلت نحوه سائلا عن صحته فقال بصوت خافت وعلى وجهه ابتسامة مؤلمة « انى سأذهب قبلكم الى مصر . واخبرهم بما لاقيناه من الشدة وتحملناه من الالم يا عبد الله .. »

فنهمت قصده وقلت بل سوف ترجع معنا سليما معافى انشاء الله ..

وكذلك شكا سينوت بك حنا اختلال الهضم . وتألم فتح الله باشا كثيرا من المرض الصديدي الذى اصاب لثته . واصيب مصطفى النحاس بك بالتهاب في عينيه .

ومع ذلك فلم يلازم احد منهم الفراش سوي الاستاذ مكرم الذي ـ

كان يلازمه مرة أو مرتين في الاسبوع ليوم أو بعض يوم . وكم من ليال احزننا فيها وآلمنا . واقضى مضاجعنا واورثنا جزعا عليه شديدا .

اجتمع اصحاب الرئيس وقرروا ارسال طلب الى حاكم سيشل بنقلنا الى مكان تتوفر فيه الاحتياطات الطبية للرئيس وكتبوه شديد اللهجة جدا . بادىء الامر . ولكن الرئيس أشار عليهم بالتخفيف من لهجته ففعلوا ..

وكتب الينا حاكم سيشل خطابا يقول فيه أنه يعتبر الطعن الذي تتناول مناخ سيشل به فى خطاباتنا وتلغرافاتنا مخالفا للحقيقة . و ينبهنا الى أن نحمل انفسنا مسئولين امام القانون بهذا العمل . ـ لذلك ما كنا نكتب فى خطاباتنا الاخيرة شيئا عن الصحة قط لا خيرا ولا شرا

وجاء تلغراف من الدكتور حامد محمود من انجلترا يسأل الرئيس فى هل يسمح له بالمفاوضة فى امر نقله الى فيشى على أن يعتزل السياسة فبعد أخذ ورد بين الرئيس وصحبه دام يومين واكثر . ارسلوا اليه الرد لا يفيد اجابة ولا رفضا . وعلمت بعد ذلك ان حاكم سيشل لم يرسله

أخذ القلق يتسرب الى النفوس من أخبار الضغط الذى تتخذه الحكومة في مصر . وقد اتصل ذلك بعلمنا من الجرائد القليلة التى وصلتنا و زاد الهاجس والوسواس لما انقطعت تلغرافات وصف بك غالى عنا .
ومضت الايام ونحن نستقبل شمس كل يوم بنظر المستفهم عما يخبئه لنا فى بطنه من الحادثات . حتى جاء يوم ١٦ اغسطس سنة ١٩٢٢

أول الانباء بنقل الرئيس

وجاءنا المستر جريك بنبأ من الحاكم يقضي بوجوب استعداد الرئيس للسفر لا يصحبه سواي . الى جهة أوفق بصحته من سيشل . وأن المسافة اليها نحو الثلاثة أسابيع بالبحر واخبرنا أن هناك مركبا حربيا يصل الليلة الى ماهى . لينقلنا الى ذلك المكان . ولم يزد ايضاحا فى كلامه عن ذلك . فقام الرئيس وصحبه وقصدوا لذلك الخبر المزعج . واحتجوا بكل قواهم على أن ينقل الرئيس وحده لا يصحبه الا تابعه فقط . الى مكان مجهول وطلبوا أن يصحبوه كلهم أو بعضهم . فلم يأت ذلك بنتيجة سوي الاعتذار بعدم الامكان . فاستولى الحزن على الجميع .

وفكرنا كثيرا فى أين يكون ذلك المكان . المزمع نقل الرئيس وأنا اليه . فلم نهتد الى شيء . ولكننا اجمعنا على ان الباخرة ستمر فى طريقها الى ذلك المكان بقنال السويس . للاسباب الآتية : —

أولا — كتمانهم عنا اسم المكان . وما الداعى لكتمانه ان لم يكن انهم يخشون وصول الخبر الى مصر التى تقع في طريق ذلك المكان

ثانيا — ان المسافة ثلاثة أسابيع وليس من مكان فى الشرق بينه و بين سيشل هذه المدة . و يصلح لان يكون منفى .

ثالثا — انهم وضعوا الرقابة على مراسلات «ماهى» تلغرافية و بريدية قبل ان يصلنا ذلك الخبر بأسبوع . وعلى ذلك ظن الكل . بأن تكون وجهتنا فيشي أو لندرا .

ولكنى لم اكتف بذلك فسعيت للاستقصاء سرا عن وجهة الباخرة . فعلمت من بعض بحارتها . انها تقوم من سيشل ولا تقف الا فى جبل طارق . فاخبرت بذلك الرئيس وصحبه . ولم يدر بخلد أحد منهم انها

ستكون وجهتنا لانه ليس هناك ما يفسر جواب الحاكم بأن ينقل الرئيس من منفى الى منفي وتزيد عليه الوحدة . ثم يسمون ذلك عناية بصحته .

بعد جهد شديد صرح للرئيس باصطحاب الطباخ أيضا . فيكون معاليه وأنا والطباخ . أما صحبه فلم يصرح لاحد منهم قط باصطحابه . رغم ان الاستاذ مكرم وفتح الله باشا بركات كانا فى أشد الحاجة الى الانتقال من سيشل

بتنا ليلة ١٧ اغسطس ساهرين . ووصلت الباخرة فى منتصف الليل . وعند الساعة الرابعة من اليوم التالى ودعت أصحاب الرئيس وكان معاليه يلعب الورق مع الاستاذ مكرم وسينوت بك والنحاس بك . وانى اذكر ان الاستاذ مكرم قال لى وقتئذ « انك دائما سعيد الحظ يا عبد الله . فكم وددت لو كنت مكانك » فابتسمت ابتسامة يمازجها هم وألم عميق . وبينا أنا فى طريقي الى الجمرك قابلت فتح الله بركات باشا صاعدا الى (بلير) فقبلت يده مودعا . وناولنى ورقة مثل التى أعطانيها فى عدن عند فراقنا الاول . مكتوب على أحد وجهيها اسمه الكريم . والوجه الاخر لا اله الا الله فعبرت له بلسان الحزن والاسى عما أتمناه وأرجوه له ولصحبه . من لقاء عاجل فى الوطن المحبوب . وواصلت سيرى حتى الجمرك فالفيت عاطف بك بالانتظار فى غرفة مأمور الجمرك لتفتيش أمتعة الرئيس حسب أمر الحاكم . وهذا هو السبب فى انى سبقت الرئيس . وقد فتش مأمور الجمرك ومساعداه حقائب الرئيس وحقائبنا تفتيشا دقيقا ولم نهتد الى ما كانوا يفتشون عليه . وقد سأله عاطف بك عن ذلك . فلم يجبه الا بابتسامة اعقبها صمت .

وبعد ان انتهى التفتيش نقلوا الامتعة والحقائب الى لنش كان

بالانتظار . وقد سألت عاطف بك بركات عند توديعه : —

«الا تظن ان وجهتنا ربما كانت هي جبل طارق نفسها ؟ . فأجابني بقوله : — وما معنى نقله من منفي الى منفى ؟ . وأردف ان جبل طارق ليست الا حصن وجوها حار جـدا . ولست اظن مطلقا . انها تصلح أن يطلقوا عليها فى خطاب الحاكم بمعتدلة المناخ طيبة الهواء . » —فقلت (طيب) وودعته وانصرفت .

السفر

ركبت اللنش الذي سار بي نحو العشرين دقيقة . وأخيرا رأيتـه يأخذ وجهته الى مركب حربي كبير ذي مدخنتين فقرأت على مقدمها الحروف النحاسية البارزة H. M. S. Curlew ودار اللنش حولها . ثم التصق بأسفل السلم فصعدت ووجدت كثيرين من البحارة تجمعوا حول الحاجز ينظرون الي بفضول — واقبل شاب طويل القامة من البحارة برتبة صف ضابط . وسألني عما اذا كنت أنا تابع الرئيس ؟! ولما علم بذلك أمر البحارة بنقل الامتعة والحقائب الى الباخرة . ثم انتحى بي ناحية وطلب مني أن أمكنه من تفتيشي . واذ ذاك أقبل ضابط صغير وسأله عما اذا كان فتشني فأجابه بوضع يديه في جيوبي وداخل صدريتي وقميصي ومر بيديه على ساقي ورفع طربوشي وخللت أصابعه شعر رأسي . فلم يعثر على شيء سوى وريقة صغيرة مكتوب فيها بالعربية بيان ما معي من الحقائب والامتعة وقلما من الرصاص وصورة فتوغرافية فحفظها معـه وقال لي انها سترد الي بعد اطلاع القبطان عليها . فمكثت انتظر .

وبحثت في جيوبي عن لفافـة من التبغ فلم أعـثر على شيء منها .

وتذكرت اني وضعتها في حقيبتي فمددت يدي لاتناول الحقيبة وما أن ضغطت بأصبعي عليها لافتحها حتى شعرت بقبضة من يد قوية وقعت على يدي فالتفت فاذا ببحار وقف و رائي حارسا ولم أره من قبل فافهمته رغبتي . فرفع كتفيه وأشار برأسه علامة الرفض فلم استطع شيئا الا ان أضحك من قهر ، وشر البلية ما يضحك

مضت ساعة فاثنتان ولم يحضر الرئيس ولا القبطان فطلبت أن اري قمرة الرئيس قبل حضوره فأجابني الى ذلك . وتبعته الي القمرة فوجدتها متسعة كملت بها معدات الراحة وعرفتهم أنه لا بد لى من نقل الحقائب اليها .. وبعد اتمام اللازم بها . صعدت الى سطح السفينة وكان الظلام نشر جناحيه على البحر والجزيرة ، فبدت من بعد كشبح اسود .

في البحر ثانيا

وحوالي الساعة التاسعة حضر الرئيس يصحبه المسترجريك وكنت أفكر باحتمال مجيء أصحابه معه لوداعه على ظهر الباخرة ، ولكني علمت بأنه لم يسمح لهم بذلك . واستقبل معاليه عند السلم قبطان الباخرة الذي حضر اليها قبله بدقائق وبعض من ضباطها وبحارتها الذين اصطفوا صفين لتحية الرئيس .

وقد حيا القبطان الرئيس تحية عسكرية . اولا : ومد يده اليه مصافحا . وكان ذلك القبطان طويل القامة جداً ضخم الجثة قد أشابت السنون فوديه ولكنه رغم ذلك كان في قوة الاسد ونشاط النمر . بعد أن قدم له ما أمكنه التعبير عنه من التحيات والتمنيات . قدم اليه ضابطا صغير الجسم قائلا أنه المكلف بمباشرة شؤون معاليه واحتياجاته أثناء السفر . ودع المستر جريك وانصرف وعلى وجهه ابتسامة غريبة .. بعد ذلك سار الضابط الصغير الي السلم ونزل الى حيث القمرة التي

اعدت لمعاليه . وأنا أتبعهم . ولما أن توسطاها أسدل الضابط الستار وطلب من الرئيس أن يسمح له بتفتيشه ولم يتريث بل سرعان ما أعمل يديه بخفة ومهارة في جيوبه الداخلية والخارجية باحثا عن أشياء لم يهتد الى معرفتها . وقد تجهم وجه الرئيس أثناء هذه العملية ، تجهما شديداً جداً ، وما أن خرج الضابط حتى حضر القبطان وبدأ يتحادث مع الرئيس بصوت عال ، مقهقها قهقهة يحسده أبناء دروزين عليها ، وهو بين آونة واخرى يضرب بيده على كتف الرئيس .

وأخيراً طلب مني أن أترجم الى الرئيس أنه اذا احتاج معاليه لشيء من الاشياء أو أمر من الامور فعليه باخباري وأنا أخبر الصف ضابط الديدبان الذي عين منذ الليلة على قمرة الرئيس وهذا يخبر الضابط النوبتجي الذي يخبر القبطان . (اللهم صبرا) .

وما ان بدأت فى ترجمة ذلك الى الرئيس حتى قاطعني القبطان بقوله وهو يشير بسبابته بين حين وآخر . ولكن احذر من أن يكون شيئا من الاشياء الفارغة هو الذى يسأل عنه . . فغالطت نفسى فى معنى ما قاله وسألته أن يوضح لى مثالا من الامثلة الفارغة التى يجب أن لا يعرضها عليه الرئيس ، فكان جوابه لى أن طلب منى ترك القمرة حالا ، ففعلت شاكراً له ذلك لأنه أراحنى من استنشاق خليط من روائح الكؤول المنبعثة من فيه ، ومكثت خارج القمرة أسمع قهقهته ووقع كفه الثقيلة آونة على المنضدة واخرى على شيء طرى لا أشك فى أنه كتفى الرئيس ، وعجبت كيف يستطيع أن يفهم الرئيس ما يريده بلهجته السريعة وكلماته المقطعة الاواخر ، وأخيراً ، وأخيراً ، خرج من عند الرئيس فوقع نظره علي ، فقال لى بلهجة شديدة ، (يجب أن تكون أكثر تمدنا من ذلك ، ويجب أن تعلم أنك هنا فى مركبى التى أنا بها

الملك ، لا في هـذه الجزيرة ، بلادك بلاد المتوحشين .) وأشار الى ماهى ، فضحكت من كونه يظنني من أهالى ماهى ، ولم أشأ تخطئته فلربمـا يكذبني ؟ ! . ودخلت على الرئيس فاستفهم مني عن سبب ترك القمرة فعرفته بالأمر ، فقال ليس في استطاعتنا سوى الصبر عليهم حتى نرتاح منهم .

سلمني وكيل القبطان ورقة تتضمن أوامر ونواهي طالبا مني امضاءها من الرئيس فأخذتها الى معاليه وقرأتها عليه وترجمتها له وكانت بالانجليزية وأخيراً طلب الي أن أكتب تحتها بالعربية « علم » فقط ، وأخذتها الى وكيل القبطان .. ومما جاء بتلك الورقه من الأوامر : —

مايجوز ومالايجوز

انه لايجوز لمعاليه أن يستعمل أدوات كتابية مطلقا أثناء وجوده بالباخرة ، واذا أراد أن يكتب شيئا فيمكنه أن يستعير قلما وورقا من الضابط المنوط به مباشرة أمورنا ، ثم يرد ذلك اليه مع ما كتب للاطلاع عليه .

وانه لا يجوز له التحادث مع أحد من ضباط الباخرة أو بحارتها سوى ذلك الضابط والصف ضابط المعينين لمراقبته .

وانه اذا احتاج لأمر من القبطان فعليه أن يخبرني وأنا أخبر الصف الضابط العهدة ، وهذا يخبر القبطان .

وانه لا يمكنه تناول الطعام الا في قمرته وفي المكان المخصص له فوق سطح السفينة الاعلى فقط .

وانه يكون دائما على استعداد لملازمة قمرته وعدم الخروج منها الا اذا استلزم الحال ذلك .

وانه سيأتي وقت يخفف فيه كثير من هذه الأوامر وذلك ، بعد اجتياز النصف الاول من السياحة .

فتأكدنا من كل ما تقدم أن الباخرة ستمر فى وجهتها بقنالة السويس . وقد سأل الرئيس القبطان عن المكان المزمع نقلنا اليه . فوعده باخباره بعد أن نترك عدن ، ولما أن تركنا عدن سأله الرئيس فأجابه بعد أن نترك قنال السويس ؟!!.

وقد عينوا حارساً يتبادل مع غيره الحراسة على باب قمرة الرئيس متى كان بها ويتبعه أينما وحيثما حل على الباخرة حتى الى حيث يذهب للحاجة الضرورية ، فيظل واقفاً على الباب مما دعى الرئيس الى العجب وقد قال انه لا يمكنه أن يفهم مطلقاً معنى وضع الحارس لمراقبته لا يفارقه لا ليلا ولا نهاراً ، وهو في سفينة حربية بين الماء والسحاب . ومما تضمنته تلك الاوامر المذكورة آنفاً :ـ انه عين للرئيس «ستيوارد» للنظر في قضاء لوازم معاليه بخصوص المائدة ، ومساعدتى فى ذلك . ولكني مع الاسف لم أجده مساعداً ؛ بل بالعكس كان وجوده مما لم يدع الى ارتياحي قط ، فانه كان يضايقني بكثرة الاسئلة عما سأقدمه للرئيس من أنواع الطعام للفطور والغداء والعشاء ، ويأتي بعد الانتهاء منها كما يأتى قبل تقديمها لالقاء نظره عليها ، ولم افهم سبب ذلك كما لم افهم سبب تصرفات كثيرة كانوا يأتونها معنا ؟

وكان هناك طبيب الباخرة وهو رجل لفحته حرارة الشمس المحرقة فتركته لا هو فى البيض ولا هو فى العبيد ، طويل القامة ، حليق الوجه ، يأتى كل يوم مرتين في الصباح والمساء للاطمئنان على صحة الرئيس ، فاذا القاه فى محله على سطح الباخرة الاعلى ظهرت على وجهه غلائم الانشراح والسرور ، أما ان لم يره ، فيجري الى السؤال عنه ، ولما يعلم انه ملازم قمرته للدوار الذي يصيبه كان يسخط ويزمجر ويروح ويغدو ، طالباً منى ان احضر الرئيس الى فوق للجلوس على سطح

الباخرة في الهواء النقي ، ولكن اذا شئت أن تطاع فسل مايستطاع ،
وما كنت لاستطيع حمل الرئيس وارغامه رغم مرضه على ترك قمرته
والجلوس على سطح البارجة مرضاة لامر الطبيب ، وكانت أنباء صحة
الرئيس تذهب يومياً الى مكان لم يمكني معرفته بالتلغراف اللاسلكى .
قبل أن نصل الى القنال بيوم ، هدأت السفينة من سيرها فعلمنا بأنهم
يودون أن يدخلوه ليلا ويجتازوه ليلا .

المرور بقرب الوطن

وعلى بعد ساعة من السويس قابلتنا مدمرة حربية تحمل خضروات
وبعض الفاكهة كان طلبها القومندان بالتلغراف اللاسلكي بناء على
طلب الرئيس لان ما كان منها بالباخرة قد نفد وقفنا أزاءها ونقلوا الى
باخرتنا ما كان بها ، ثم استأنفنا السير ، وجاءني القبطان يقول انه يلزم
أن يكون الرئيس فى قمرته قبل الساعة الخامسة ، وان النافذة الوحيدة
التي فى غرفته والتى ينفذ منها الضوء يجب أن توصد بالزجاج والحديد .
فما أصعب تنفيذ ذلك الامر وقتئذ ، وأى جبين لا يندي عرقا ، وأى
فؤاد لا يتألم أسى ، وأى يد لا ترتعش اذ تمتد لغلق نافذة سجين كان
تحجب عنه رؤية بلاده ، وأي لسان لا يتلعثم عند ما يسأل الرئيس عن
سبب قفل النافذة ؟!!
لله ما كان أصعب تنفيذ ذلك الامر علي ، ولكن لم أر حيلة للتخلص
واذا أنا لم افعل ذلك قام عشرون غيري بتنفيذه بطريقة قاسية ، فغالبت
نفسي حتى غلبتها ، وذهبت لاخبر الرئيس بطلب القبطان ولكن ما رأيته
أو ما رآني حتى ابتدرني برغبته فى النزول الى قمرته فصحبته اليها ،
وحمدت الله على أن أنقذني من نصف مأموريتي الشاقة ، ولما استوى

الرئيس في فراشه مددت يدا تضطرب واغلقت زجاج النافذة لحديدها،
فقال الرئيس ولماذا تغلق الحـديد ، فلم أدرِ ماذا أقول وتلعثم لساني
يريد أن يخرج كذبة ، ولكنه نظر الي مليا ثم قال : حسن حسن اشكرك ،
اغلق النافذة ، وقد فهم ولم تبعد على بصيرته المتوقدة ما أنا فيـه من
ارتباك وتردد. اتممت ذلك وخرجت من القمرة بدون أن أفوه بكلمة
أخرى وذهبت الى القبطان الذي أرسلني مع حارسين قاداني الى قاع
السفينة بين الآلات ، وقال لى أحـدهما يمكنك الآن أن تدخن أو
تجلس أو تنام فى هذا المكان تحت حراستنا ،لا تبرحه حتى الصباح ،
فاسقط فى يدى. وقلت ويحك ، حتى سماء مصر لا أراها ؟ .

فلم يجشم نفسه عناء الرد علي بل أدار ظهره الي وأخذ يتحدث مع
رفيقه ، مضت الساعات ولم أنم واستولى الكري على الحارسين ، ولولا
خوفي أن يقال مات وهو يحاول الهرب لانطلقت الى سطح الباخرة
ومتعت نظرى قليلا برؤية بلادي من بعد ، غير مبال برصاص الحارسين ،
وملأت رئتي باستنشاق نسيمها العليل ، ولكنى صبرت على القـذى
وراوضت نفسي حتى رضيتها ، ورددت قول القائل :

فيا دارها بالخيف ان مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

وكنت أشعر أثناء الليل بارتجاج شديد في البارجة فاعلم أنها انما
تسير بسرعة عظيمة ، لم تسر قبل بمثلها ، وأحيانا تهدأ حركتها حتى أخال
أن حركة آلاتها وقفت تماما ، والسبب فى ذلك أنها تسرع في الجري
بقدر الامكان في الجهات المتسعة من القنال حتي لقـد بلغت سرعتها
الى عشرين عقدة في الساعة فى البحيرات المرة وتبطيء جـداً في
الجهات الضيقة حيث يخشى عليها من الالتصاق بالرمل ، ومضي جزء
كبير من الليل لم يغمض فيه لي جفن بل ظلت عيناي مفتوحتان ناظرتان

الى لا شيء كانها قطعتان من الزجاج ، وألهبت صدري واحرقت رئتي بكثرة ما دخنته من لفافات التبغ طول المدة ، فانعقدت فوق رأسي سحابة قاتمة من دخانه ، كما انعقدت في نفسي سحابة الغم السوداء والحزن القاتم ، مصر ، ها هي وليس في استطاعتي ان اراها ، ويخ نفسي أن ذلك أشد ما يلقاه الانسان

قرع سمعي صوت أحد البحارة يقول لآخر ، لقد اجتزنا القنال وأصبحنا في البحر الابيض منذ اكثر من ساعة ، فانتصبت واقفاً كمن أضاع شيئاً ثميناً ، ولا أعلم لماذا ، نعم لم يكن لدي أمل برؤية مصر بعد ما رأيته من الاجراءات التي اتخذت ضدنا ، ولكنه شعور لم أملك ضبطه ، وطلبت من الحارسين أن يتركاني أذهب لرؤية الرئيس ربما يكون محتاجا الى شيء وهو شيخ مريض ، فلم يأبه أحدهما لقولي ، وكان الاخر لحسن الحظ على شيء من العقل ، فاستأذن لي من ضابطه وصعدت جريا الى سطح الباخرة علي أري شيئاً ؛ ولكن لم ار أمامي سوى الماء والسماء ، وارتد البصر خاسئاً وهو حسير ، نزلت الى حيث الرئيس في قمرته ، وأزحت الستار بخفة خيفة أن يكون نائما فأوقظه ، ولكني رأيته مستيقظا مستويا في فراشه ، ناظراً الى النافذة المغلقة ، فانبئت بحركة أشعرته بوجودي ، فدعاني للدخول وقبل أن أفتح فمي بالكلام بادرني هو بقوله ، لقد اجتزنا القنال حوالي الساعة الثالثة من الصباح ، فعجبت كيف علم بذلك ولم ير ولم يسمع

حوالي الظهر جاء القبطان وهو باسم وحيا الرئيس الذي كان جالساً أمام منضدة صغيرة على سطح الباخرة ثم قال له اسمح لي أن أخبرك أن وجهتنا بمعاليك هي ، جبل طارق ، فلم يحدث ذلك الخبر تأثيراً جديداً عندي ، كما لم يبد على وجه معاليه شيء كما هي عادته ؛ فانه من الصعب

جداً أن يقرأ المرء شعوره من ملامح وجهه

جلس الرئيس ذات مساء فى المكان المعد له على سطح الباخرة لاعلى وقال فى ما حدثنيه ، لقد أفادونى من حيث لا يعلمون ، اذ ذلك التحفظ والمبالغة في التخفى والتكتم حال اجتيازنا قنال السويس لمما يدعونى الى الاطمئنان على حالة البلد المعنوية ، ولولا أنها قريبة الانفجار لما عانوا كل ذلك في سبيل ألا يصل الى علم المصريين خبر مرورى من قنال السويس ، ولا يزيدنى الارهاق والألم الاسعادة وسرورا ، وانى لو جاءنى الموت الآن للاقيته بثغر باسم ، فقد بلغت منزلة دونها مني المتمني »

* * *

كان بالباخرة رجل ملكي يدعى المستر مورجان تظهر عليه آثار النعمة ، يضع على عينيه نظارات ذهبية ويقول عنه البحارة انه صديق عائداً معه الى انجلترا ، كان ذلك الرجل يتودد كثيراً الى الرئيس ويحادثه بمناسبة وبلا مناسبة ، وقد عرفت من طرف خفى أن ذلك الرجل من رجال الخدمة السرية Secret Service Men

فأخبرت الرئيس بذلك فقال « أنه يغلب على ظني ذلك ، ولكن الرجل لم يفاتحنى قط في السياسة » وتودد اليه الرئيس وكان ذلك الرجل يتقن عدة لغات شرقية وغربية ، فكان يحييني آونة بالعربية الفصحي وأخري بالفرنسية أو الانجليزية

كانت الاوقات التى قضيناها بهذه الباخرة أعصب ما مر بنا في المنفى فكان الرئيس يقضى أحيانا ثلاثة أيام متوالية ، وهو ملازم فراشه ، لا يبرحه قط ، بل كان يتناول طعامه به ولا يستقر ذلك الطعام في امعائه سوي دقائق معدودات ، فكان الخطر الحقيقى على حياته هو فى أثناء انتقالنا من سيشل الى جبل طارق ، وكان يجلس أحيانا عندما يشتدبه

الدوار فيقول (ليلقونا في أى مكان ، ليقذفوا بنا فى أى أرض كي نستقر بأقدامنا ثابتة ، وليريحونا من هذا العذاب ، ولو بمنفى آخر

الى جبل طارق

وانقضت تلك المتاعب والاهوال ، قبيل وصولنا الى جبل طارق فهدأت الامواج واعتدل سير الباخرة وتقدمت صحة الرئيس قليلا ، وأخذ القبطان يبدي من المجاملة للرئيس فوق ما اعتاد ، ووصلنا الى جبل طارق صباح ٣ سبتمبر سنة ١٩٢٢

وما أن رست السفينة حتى كان الرئيس مرتديا ثيابه على تمام الاستعداد لمغادرتها ، وحوالى الساعة التاسعة وصل سكرتير الحاكم المستر... وهو رجل طويل القامة يرتدى لباس الجندية واﻟ (كولونيال سكرتاري) والدكتور جيمس لوكهد ، وقدمهم القبطان الى الرئيس فقابلوه مقابلة ودية ، وعرفوه أنهم اعدوا له بيتا جميلا في جبل طارق ، ويأملون أن يجد فيه معاليه كل معدات الراحة ، ثم استقلوا سيارة وتبعتهم والطباخ في سيارة اخرى ، بعد أن ودع قبطان الباخرة وضباطها ، وما زالت السيارتان تصعدان في مرتفعات حتى وصلنا الى المنزل المعد لنا بعد نحو ربع ساعة

وبدخولنا اليه وجدنا رئيس البوليس بالانتظار ، وبمجرد أن جلسوا في قاعة الجلوس ، قدم رئيس البوليس ورقة الى الرئيس تتضمن قراراً بخصوص اقامته في جبل طارق ، فتناولها منـه سكرتير الحاكم بسرعة قائلا هذا أمر ثانوي ، والقاها بجانبه على أحد المقاعـد ، ثم تحادثوا قليلا بخصوص المنزل ، وقبل أن ينصرفوا قدم سكرتير الحاكم يده الى الرئيس مصافحا ثم قال ، أرجو يا سيدى أن تعتبر نفسك هنا ضيفا لا سجينا ، فابرقت أسارير الرئيس وشكره على تلطفه الذى لم يك لنا عهد بمثله منذ أن فارقنا مصر

وعند الباب تأخر أحدهم وهو الدكتور جيمس لوكهد وعرفني بنفسه وسألني عما اذا كان الرئيس لا يجد غضاضة فى أن يسمح له بزيارته كل يوم ، فاجبته بان ذلك هو ما يرتاح اليه

فانصرف على أن يبدأ زياراته فى صباح الغد

ويحسن بى قبل أن أخوض فيما حدث لنا بجبل طارق ، أن اصف أولا تلك الصخرة وما تحتويه :—

وصف جبل طارق

جبل طارق صخرة عظيمة التحصين في مدخل غربي البحر الابيض المتوسط يبلغ طولها نحو الثلاثة الاميال وعرضها نحو الثلاثة ارباع الميل

وتتصل بالقارة الاوروبية بواسطة برزخ رملى منخفض ويزيد ارتفاعها عن ١٤٠٠ قدم ، وبها تجاويف عديدة في صخورها ، كانت توضع بها المدافع قديما ، ويقال أن بها الآن من المدافع ما يوافق عدد سنين التاريخ الميلادي ١٩٢٣ ما بين قديم عاطل وجديد يستعمل ، ومناخها حار في الصيف تلطفه نسمات البحر ويشتد البرد بها فى يناير وفبراير ومارس ، ولكن الجليد لا يسقط هناك

وتهب بها أحيانا رياح عاصفة تسوق اليها كثيراً من السحب السوداء المفعمة بالمياه ويطلقون عليها اسم لافانت أولافانتى ، وليس بها أنهار ولا عيون ، ويشرب الناس من ماء الامطار المخزون ، وأهميتها الحربية عظيمة لانجلترا لانها مفتاح البحر الابيض وأقوى حصن لانجلترا به ، كما انها محطة بحرية للاسطول الانجليزى ، وأهميتها التجارية عظيمة كمركز لتوزيع تجارة انجلترا للشرق ، وفيها محطة لاسلكية عظيمة وبها اكبر محطة للتلغراف السلكى E.T.C.

وتبعد عن أقرب مدينة اسبانية نحو العشرين دقيقة بالعربة واسمها لالينيا ، أو نصف ساعة باللنش عن مدينة اخرى وهى الجزيرس ، ويمكن السفر من الجزيرس بالسكة الحديد الى داخل اسبانيا وكافة عواصم اوروبا

وقد استولى عليها العرب قديما سنة ٧١١ ميلادية ، وأخذها الانجليز من الاسبان سنة ١٧٠٤ وبقيت فى حوزتهم منذ ذلك العهد الى الآن

وليس بها شيء من الحاصلات الزراعية ، وتأتيها المؤونة من مراكش واسبانيا وانجلترا

المدينة : ـ تقع مدينة جبل طارق على السفح الشرقي لتلك الصخرة وهي ليست كبيرة ، وانما يجد الانسان بها كل احتياجاته ، الضرورية والكمالية ، ففيها المتاجر العظيمة ، والصيدليات ، والاسبتاليات ، والاطباء ، ومشارب القهوة والكاوبات ودور السينما والتمثيل ، ووسائل الانتقال بها متوفرة بواسطة العربات والاتوموبيلات ، وبها سوق عظيم منظم للمأكولات ، وشوارعها وطرقها رحبة فسيحة ، نظيفة تضاء بالكهرباء ، وكذلك دورها الجميلة ، ذات أسقف مخروطية ركبت على حروفها مواسير من الزنك بشكل يحجز ماء الامطار عند سقوطها على اسطح المنازل ، وتمتد هذه المواسير الى خزان تحت ارض كل منزل ، ويستعملون تلك المياه للشرب ، وهذه هى الوسيلة الوحيدة التي يستسقى بها القوم ، وهناك أيضاً حمامات ماء مالح فى كل البيوت ولكنها تستعمل فقط للغسيل

وسكانها البالغ عددهم نحو ال ٢٠ الف نسمة هم «الجبل طارقيون» من أصل تغلب فيه المالطية والأسبانية والانجليزية ، وبينهم كثير من

الاسبان الذين ينزحون اليها من بلادهم للقيام بالاعمال ومباشرة التجارة ولهؤلاء القوم لغة خاصة تشبه كثيراً اللغة الاسبانية ، ويتكلم الاهالى الانجليزية أيضاً مع الانجليز

وبين سكانها كثير من الهنود والمغاربة ، يزاولون التجارة ، ويجيد هؤلاء الانجليزية ، والفرنسية والجبل طارقيـة والاسبانية ، الى حد مدهش جدا ، وقد كنا نتفاهم مع المغاربه هناك بالانجليزية والعربية والامن في تلك البلاد مستتب جداً ، وأهلها ذوو رقة ووداعة

منزل معالى الرئيس

يقع المنزل الذى اعد لاقامة الرئيس فى جبل طارق فى جهة تدعى طريق اوروبا ، وهى محلة يقطنها كبار الانجليز من رجال الحكومة والجيش ومعظم بنيانها ، قشلاقات واسبتاليات للجنود ، وفيلات جميلة ظاهرة النظافة تضاء بالكهرباء ولـكل فيلا حديقة جميلة ، ويلاحظ أن حكومة جبل طارق تهتم بهذا الجزء من الصخرة من حيث النظافة أكثر من اهتمامها بغيرة

وقد مضي على ذلك البيت سنتان قبـل حضورنا لم يسكنه قبلنا أحد ، وفيما سبق ذلك كان يقطن به رجال الجالية الامريكية من ضباط وجنود ، ويعرف باسم جلن روكي Glen Rocky وبه حديقة فسيحة غناء ، بها كثير من أشجار التين واللوز ، والسرو والبلوط ، وهو يحتوى على كثير من الغرف كملت بها معدات الراحة من أثاث ورياش وقد ادخلنا به التليفون والاجراس الكهربائية

علمنا عند قدومنـا الى جبل طارق أن للرئيس مطلق الحرية ، فى الذهاب والاياب داخل حدود جبل طارق علي شرط ألا يتعدى الارض الانجليزية

وقد استصدروا من معاليه قسما بعدم محاولة ترك جبل طارق بدون تصريح له منهم بذلك

ورغم ذلك فانهم وضعوا المراقبة رجالا من البوليس الملكي يسيرون وراء معاليه أينما سار ، وكانوا ظاهرين ولكن لما اظهر الرئيس عدم ارتياحه من هذه المراقبة الظاهرة الى رئيس البوليس المستر كوكلان ، تحولت المراقبة فصارت مستترة ، وكان اولئك الرجال المراقبون من سكان البلاد ، وهم يجيدون الانجليزية جداً ، ويتكلمون الاسبانية كذلك ، وكثيراً ما كان معاليه يذهب الى السوق على قدميه وهو يقع أسفل الصخرة ، ويبعد عن البيت نحو الـ ٤٥ دقيقة فيبتاع بعض الجرائد ، وشيئا من الفاكهة

وكان كل صباح يتنزه فى حديقة المنزل نحو الـ ٢٠ دقيقة قبل الفطور ، وبعد ذلك يخرج الى الطريق فيسير لمسافة ميل ونصف ثم يعود الى قراءة المجلات والجرائد الانجليزية (التي كنت أساعده فى تفهيم ما يجيء بها بخصوص مصر) وغيرها

وكذلك يقوم بهذه النزهة بعد ظهر كل يوم ، أما فى الليل فلا يخرج . وكان الناس أثناء مروره فى الطريق يشيرون اليه بالبنان ويتهامسون باسمه .

وقد لاحظ معاليه بعد قليل من وجودنا هناك ان الطربوش يستلفت انظار الناس ويدعو الى استلفات نظرهم فاشترى قبعة وأخذ يلبسها كلما خرج للنزهة .

وأحياناً كنا نستقل عربة تمر بنا حول الصخرة بين طلولها القديمة ، وقد رأينا فيما رأينا برجا يقول الناس ان بانيه هو طارق بن زياد ،

ولم يبق منه الا رسومه ، وقد أحاطته الحكومة بسور من الحديد ، وهو قائم ، وسط خلاء شاهد لما كان للعرب من مجد أثيل ، وعز تليد.

كانت المراسلات من والى الرئيس في جبل طارق غير ما كانت فى سيشل ، فانها كانت حرة ، لا رقابة عليها ، لذلك كنا نتلقى كل يوم وابلا من الرسائل التلغرافية كما كان يأتينا البريد بكثير من الرسائل التلغرافية والبريدية كل عشرة أيام تقريباً من مصر ، وكل أسبوع من أوروبا .

اهتمام الرئيس بانصاره

وقد كان أول ما اهتم به معاليه ثانى يوم وصولنا الى جبل طارق هو الاستفسار عن واصف بك غالي وزملائه ، فارسل تلغرافا الى الشمسي بك فى باريس فجاء الرد بالحكم عليهم بالاعدام ثم تخفيفه الى سبع سنوات سجن وبالغرامة ، فكانت هذه صدمة قوية جداً للرئيس تركته شديد الحزن والكدر ، وقد أرسل الى عائلات المحكوم عليهم تلغرافات رقيقة تعبر عن أسفه . ولكن لم يصلنا الرد الا من مدام واصف بك غالي فقط .

وقد كتب معاليه خطاباً مطولا الى الدكتور حامد محمود ، شرح له ، ما يعانيه صحبه في سيشل من الامراض ، والآلام فى مكان لا تتوفر فيه الاحتياجات الطبية ، وذكر له ما لقيناه من العذاب والالم فى رحلتنا من سيشل الى جبل طارق على مركب حربى ، وانبأه بالاستقبال الرقيق الذي استقبلوا به معاليه فى جبل طارق وحدثه أيضاً عن الدكتور جيمس لوكهد طبيبه الذي عينته له الحكومة واخبره انه مرتاح اليه ويتوسم فيه المهارة والمعرفة ، وجاء الرد من الدكتور حامد متناولا

أشياء كثيرة منها انه يسعى جهده فى الحصول على تصريح له بالمجيء الى جبل طارق والبقاء مع الرئيس بصفته طبيبه الخاص ، وانه منتظر نتيجة مساعيه ، ولكن لم تأت تلك المساعي بالنتيجة المطلوبة ، فانهم عرفوه بانجلترا ، (على ما علمنا منه في خطاب) ، انهم خابروا مصر في هذا الشأن ، وجاءهم الرد من مصر بارسال أي دكتور خلاف الدكتور حامد محمود لانه سياسي أكثر منه طبيب ، فقلنا حسناً ما فعلوا وانه لفي انجلترا أعم نفعاً منه في جبل طارق .

اخبار ومعلومات

وقد علمنا منه أيضاً فى خطاب انه سعي ونحن بسيشل فى تكوين لجنة من مشاهير الاطباء فرنسيين وانجليز ، وبذل جهداً كبيراً فى استصدار الامر بسفرهم الى سيشل ولكن لم يصرح لهم وقد عمل الرئيس اشتراكا في احد البيوت الصحفية فى انجلترا وكانت ترسل الينا فى كل أسبوع مقطوعات الجرائد من المقالات التى تتناول مصر والحالة السياسية ، فكفانا بذلك مؤونة تعب كنا نتجشمه فى شراء جميع الجرائد الانجليزية وغيرها ، وأصبحنا لا نبتاع الا الجرائد الفرنسية ، وجريدة جبل طارق واسمها كرونكل جبرلتار ، وهى الجريدة الرسمية ، والوحيدة التى تصدر في جبل طارق ، وقد كتبت مرة ، بمناسبة ما كتبته عن زغلول باشا عند حضوره الى جبل طارق ، (ان زعيما يدعى الزبير باشا) جيء به منذ ثلاثين سنة الى جبل طارق ولم يمكث بها سوى ستة شهور حتى إطلق سراحه ، (لانه اعطى تعهداً بحسن سيره) ، فلاحظ الرئيس ذلك ، وعجبنا الى ماذا ترمي تلك الجريدة بقولها هذا .

وكتبت أيضاً ذات مرة (ان زغلول باشا ارسل برقية الى الغازي

مصطفى كمال باشا يهنئه فيها على انتصاره ، وان الغازى أرسل الرد بالشكر وبأنه يؤمل أن يكون عن قريب السبب في عودة الرئيس الى بلاده ،) فعجبت غاية العجب لانى أنا الذى أرسل البرقيات ولم أرسل قط برقية من هذا النوع ، ولما اطلع الرئيس عليها ، طلب من الجريدة تكذيبها فكذبتها فى العدد التالي .

وكذلك كانت تصلنا الجرائد العربية اليومية من مصر كل أسبوعين تقريباً ولما وصلتنا أول اعداد جريدة السياسة ، قال الرئيس مبتسما بعد اطلاعه عليها ، (لقد كنت أظن انها ستصدر أحسن من ذلك) .

***

وجاءنا ذات يوم في ما جاءنا بالبريد ، بجبل طارق ، خطاب موصى عليه من رجل يدعي ولنجتون أو ما شابه ذلك عن طريق الحاكم ، ويقول ذلك الرجل فى خطابه الى الرئيس انه موكل من قبل المستر فولك المحامي بواشنطون بأمريكا ، وانه ذهب الى مصر للحصول من هيئة الوفد المصري على مبلغ عشرين الف جنيه مستحقة للمحامي المذكور المستر فولك بقية اتعابه في أعمال قضاها للوفد المصري ؛ وانه قابل سعادة محمد محمود باشا ، بمصر وكتب له سعادته اعتماداً بالمبلغ المطلوب (وارفق الاعتماد بالجواب ممهوراً بامضاء محمد محمود باشا ، وهو على ورقة من ورق خطابات كازينو سان استفانو بالاسكندرية)

الرئيس يطلب رفقاءه

ولما كانت معيشتنا في جبل طارق أحسن منها بكثير فى سيشل ، كان معالى الرئيس مسروراً غاية السرور ، لولا ان ذكرى صحبه فى سيشل كانت تعكر عليه صفاءه ، وكثيراً ما عبر لى عن أمنيته في أن ينتقل

صحبه الى جبل طارق وأخيراً كتب الخطاب الآتي الى حاكم جبل طارق :—

١٢ اكتوبر سنة ١٩٢٢

جلن زوكي

جبل طارق

جناب حاكم . . . .

«اشعر انه من الواجب علي احاطة علمكم بحالة أصدقائي الذين تركتهم في سيشل ، وان اسأل جنابكم أن تتكرموا بتوجيه رغبتي هذه الى الحكومة الانجليزية ، لاعتبارات ودية .

ان المناخ في سيشل رديء جداً بالنسبة لابناء بلادي ، وجميعهم هناك يعانون كثيراً من تأثيراته ، وان صحتهم لفي خطر من جراء عدم وجود التسهيلات الطبية اللازمة ، — لان هناك دكتور قانوني واحد — وقلة وجود الادوية المختلفة .

وليس هناك طبيب اختصاصي للعيون ولا للاسنان وأربعة من أصحابي في حاجة ماسة الى العلاج واحد بعينيه والآخرون بأسنانهم ولذلك فارجو ان يصير نقل أصحابي من سيشل الى مكان آخر حيث يتوفر مناخ موافق لصحتهم ، وحيث يكونون على متناول العناية الطبية والاحتياجات الضرورية التي هم في أشد الحاجة اليها .

ولي الشرف ... الخ

« سعد زغلول »

* * *

ونشرت مرة جريدة أسبانية تصدر هناك مقالة مطولة شديدة اللهجة بإمضاء انجليزي قطن مصر اسمه (اميجو) (١) يدعو فيها أهل جبل طارق والاسبانيين الى الاحتفاء بزغلول باشا زعيم مصر الكبير واكرامه ، بل يدعوهم أيضاً الى الاحتجاج على سجنه والسعي في الافراج عنه ؛ ويشرح نتفاً من تاريخ حياته وأصله .

فكانت النتيجة ان اقفلت السلطة الانجليزية تلك الجريدة يوما وبعض يوم حتى اعتذر أصحابها ، وقدموا الضمان على عدم العودة الى مثل هذا العمل وقالوا « انها رسالة وصلتهم من مصر وقد نشروها بحسن نية ، فعادت الى الصدور

وقد اراد الرئيس الاستمرار فى تعلم اللغة الانجليزية التى كان يتلقى في عدن وسيشل على الاستاذ مكرم ، وكنت أساعده في التمرين على الكلام بها ، طلب من الدكتور لوكهد أن يبحث له عن معلم أو معلمة انجليزية لتعطيه دروساً فيها ؛ فأتى له الدكتور بشاب من صف الضباط بالجيش الانجليزى يعطيه أربعة دروس في الاسبوع ، مقابل ثلاثة جنيهات شهريا .

وقد تقدم معاليه تقدما محسوساً فيها ، وانما كان يحتاج الى زمن طويل لاخراج الجمل لعنايته الزائدة بتركيبها النحوي .

أما صحته فأخذت في التقدم منذ وصولنا الى جبل طارق حتى تم شفاؤه من مرض البول السكري ، فبشر بذلك حرمه تلغرافياً .

ولكنه لما سئم الوحدة ، كتب الى حرمه بالحضور الى جبل طارق

---

(١) هو المستر اميجو التاجر المعروف في بورسعيد وهو صديق قديم للشيخ على يوسف ومصطفى كامل

فوصلت الى هنا يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢٢ مع المرحوم سعيد بك زغلول ، والسيده فهيمه هانم جاءت بصفة ممرضه لحرم الرئيس ، وخادم وخادمة .

فاستقبلناهم بالميناء وقد انتظر الرئيس في بناية تتبع الحكومة على البحر ودخلت الى آخر الرصيف ، فكان استقبالهم لي مؤثراً وعانقني المرحوم سعيد زغلول بك شكراً على ما قمت به من التطوع لهذا النفي الطويل ... فاخذتهم الى حيث كان الرئيس وهناك كاد البكاء وصرير الاسنان ، فقد بكا معاليه وبكت حرمه ، ولم يتمالك أحد من الحضور دموعه .

وعدنا جميعاً الي المنزل ، حيث لبس حلة من السرور والسعادة . لم تك به من قبل ، وظل الرئيس وحرمه ، في صحة جيدة ، الى وقت أن تركت جبل طارق في نوفمبر سنة ١٩٢٢

بعد العودة

فى مصر

وبعد ذلك عدت الي مصر فتناولتني يد رجال الامن منذ أن وضعت قدمي في ميناء بور سعيد حتى الى بعد وصولي القاهرة بشهر فقد فتشوا حقائبي تفتيشا دقيقا جدا فى جمرك بور سعيد ، وكذلك ثيابي حتى الحذاء ، وكان ذلك فى سبيل البحث عن خطابات أو اوراق يتناول موضوعها شيئا من السياسة ، لم يعثروا على شيء من ذلك لاني ما كنت احمل منها شيئا ، وبعد ذلك تقابلت مع انجليزى من موظفى مصلحة الجمارك ، فطلب مني أن اقوم مباشرة الى مصر وان اقابل

انجرام بك ، وأمر نفر من البوليس بحمل امتعتي الى المحطة

وفي صباح اليوم التالى كنت بوزارة الداخلية ، مرتديا «برنيطة» لعدم وجود وقت اشترى فيه «طربوشا»

وقابلت انجرام بك ، فسألني متى حضرت وماذا كنت اشتغل مع الرئيس ، ثم صرفني طالبا مني العودة في اليوم التالى

وعدت في اليوم الثاني وطلبت مقابلته ، فطلب مني الانتظار قليلا فانتظرت حتى الظهر اذ جاءني امره بالانصراف والعودة في اليوم الذي يليه ، وهكذا على هذا الحال مدة أيام اذهب وانتظر بلا محادثة ولا سؤال ، ثم انصرف

واخيراً ، عرفته بما ينجم عن ذلك من تعطيل عملي وضياع وقتي واني ارغب في معرفة ما يرغبه مني ، أو ما يود أن يلقيه على من الاوامر ، فقال لا اوامر ، وانما اود أن اعرف ماذا كانت سيشل ، وماذا كانت عدن ، وجبل طارق ، وهل مرضنا ، وهل اصابنا نصب وتعب في سفرنا ، فاجبته عن ذلك ، ومضيت الى سبيلي ولم اعد بعد ذلك الى مقابلته قط

ولما كانت الظروف التي قدمت فيها الى مصر يصعب معها نشر شيء عن رحلتنا ، لزمت الصمت حتى اتاح الله الفرج وزالت هذه الظروف فعمدت الى نشر كتابي هذا الذي يطلع عليه الجمهور في وقت طلوع تلك الشمس المشرقة ألا وهي معالي سعد زغلول باشا أدامه الله ذخراً للوطن وبنيه .



Bibliotheca Alexandrina
05558564